3

المنظورات الجديدة

المخابرات بأعين إنجليزية
مخابرات بدون جواسيس وعملاء مأجورين
عن جدارة الجاسوسية
انتقال نقاط ثقل العمل الاستخباري

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المخابرات بعيون بريطانية

أممية أخرى

إنه لأمر مجد أن نكب بدقة وجدية أكبر عن الأدبيات، التي جعلت من أجهزة الاستخبارات قبل سنوات الحرب وبعدها موضوعا لها. ذلك سيصل بنا إلى استنتاجات تستحق الاهتمام، وسيجعلنا نبلغ النتيجة المفاجئة، وهي أن أعلى حملة الأسرار في الغرب وأكثرهم أهمية كانوا يعرفون جميعهم على وجه التقريب بعضهم بعضاً، ذلك أنهم التقوا قبل الحرب، وانعقدت غالباً أواصر الصداقة بينهم، والتقوا من جديد بعد الحرب لتبادل التجارب، مع أنهم ـ وهذه هي الإثارة الحقيقية في القصة ـ تجابهوا كأعداء بين عامي 1939 و 1945. لم يكن هذا حال الجنرالين جيهلن وويديماير وحدهما، اللذين سيكون لدينا ما نقوله عنهما، بل هو ينطبق بصورة خاصة على الرجل الأول في الاستخبارات العسكرية الغربية الحليفة، السير كينيث سترونج وعلى خصمه الألماني حتى سنة 1943، اللواء اللاحق أولريش ليس، رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية غرب» في القيادة العليا للجيش الألماني.

كان هذان العسكريان الرفيعا المقام بالذات غريمين في لعبة واحدة، تقيداً بطبيعة الحال بقواعدها المشتركة، فربطهما ضرب من زمالة رياضية لم تستبعد التنافس بينهما، بل أعطته معنى اللعبة الصراعية، كما بلورها يوهان

هويزنجا بقوة في كتاب هومو لودنس[1]، الأمر الذي لم يسبق أن حدث مثيل له بين الجواسيس.

ثمة مفاجآت يحفل بها أدب المذكرات، المكرس للاستخبارات. منها، على سبيل المثال، أن أكثر الناس سرورا بالمنظور الإنسانوي هم أؤلئك الذين يسميهم الكتّاب حملة الأسرار، الذين كتب سترونج ملحقا خاصا بهم في مذكراته الموسومة رئيس استخبارات في الحرب والسلم، حيث وصف مرة أخرى بطريقة ملموسة شخص وإنجازات ليس في فصل «ألمانيا»[2]، وثمَّنهما بموضوعية. هنا، يعبر التعاطف المتبادل عن نفسه بسلاسة، وكذلك الرضى عن المعرفة المشتركة بأسرار الدولة والأسرار العسكرية، التي رفعتهما سوية فوق كتلة الضباط المماثلين لهما في المنصب. كتب سترونج يقول عن ليس: «وجدت فيه رفيقاً لطيفاً إلى أعلى درجة ومعجبا ببريطانيا العظمى والإمبراطورية البريطانية». من جانبه، كان سترونج يقدر الألمان، كما تشير إلى ذلك كتبه مراراً وتكراراً، وكان يحترم ضابط الاستخبارات الألماني، الذي كان ليس يجسده، ولا يخفي شعوره بالإعجاب حياله. وقد قال، في سياق التأكيد على عمل ليس ومعاونيه المثير للتعاطف: «كانت خطط إعلان التعبئة الفرنسية من أكثر أسرار فرنسا تمتعا بالحماية، وكان ليس وزملاؤه مهتمين بها بطبيعة الحال. وقد نجحوا بتكوين صورة صحيحة تقريبا حولها بفضل تحليلاتهم الدقيقة لردود الأفعال الفرنسية في الأزمات المختلفة، التي وقعت في سنوات ما بين الحربين، وتقصيهم المتقن للتغيرات التي شهدتها

(1) أشار الباحث الهولندي المهم في التاريخ وفيلسوف الحضارات يوهان هويزنجا (1872-1945) في كتابه الشهير الصادر سنة 1938 إلى طابع اللعب في الحرب التي يتم خوضها بفروسية. دائرة معارف روفولت الألمانية، الجزء 21، هامبورج 1956، ص 90-104: الفصل «اللعب والحرب».

(2) سترونج: الكتاب الثاني، ص 109-154.

شبكة السكك الحديد الفرنسية. وقد كان بوسعهم مراقبة أي تفصيل، عند إجراء تعبئة عامة في القوات المسلحة الفرنسية، واقتراح تدابير معاكسة ليست على قدر من الشدة يجعل لها تأثير الاستفزاز، وليست في الوقت نفسه على قدر من الضعف يجعلها عديمة القصد والهدف[1]. أو بكلمات أخرى: لقد تم بفضل حدة العقل والمنهج الصائب وموهبة الربط بين التفاصيل الحصول على معلومات تفوق تلك التي كان يمكن اكتسابها بفضل جموع العملاء، الذين كان يمكن تكليفهم بالتجسس على خطط التعبئة العامة الفرنسية. ويبرز سترونج في ليس أنه كان صديقا عظيما للخيول وعارفا خبيرا بها، وتاليا خيالا ممتازا ربح جوائز في 46 مباراة كبيرة. ويقول إن هذا الشغف النبيل أقاد خلال الحرب وحدة عسكرية أجنبية، كانت من الفرنسيين هذه المرة، ففي شباط/ فبراير من سنة 1939، سنة نشوب الحرب العالمية الثانية، تميز فريق مدرسة الفرسان الفرنسية سومور في مهرجان ركوب الخيل وقيادتها في برلين، وحصد الاستحسان والإعجاب بسبب رشاقة فنون الركوب وخفتها التي أظهرها. اشتبكت مدرسة الفرسان هذه يوم 19 حزيران سنة 1940 مع لواء الفرسان الألماني الوحيد، وأبدت مقاومة عنيفة على معابر نهر اللوار. بعد الهدنة، تدخل ليس، وكان لا يزال عقيدا، لدى قيادة الجيش العليا، وأقنعها بالسماح لضباط وخيالة وأحصنة مدرسة سومور للفرسان بالالتحاق بالمنطقة الفرنسية غير المحتلة، أي بعدم معاملتها كغنيمة حرب للمنتصر. كتب ليس عن هذه النتيجة: «بلغت علاقات الجيشين الألماني والفرنسي نقطة الذروة مع عرض «الإطار الأسود» لمدرسة سومور لتدريب الفرسان على الرقص الرباعي بالخيول في مهرجان شباط/ فبراير سنة 1939 في برلين، الذي أقنع عدو الخيول والفرسان هتلر بتأسيس مدرسة ألمانية مشابهة، كان يجب

(1) سترونج، الكتاب الثاني، ص 127.

أن توجد منذ سنوات. من كان يظن آنذاك أن لواء الفرسان الألماني الوحيد سيخوض بعد ستة عشر شهراً قتالا ضاريا ضد تلامذة ضباط سومور من أجل السيطرة على جسر اللوار. بعد الهدنة عبرت خيول التدريب والقفز التابعة لمدرسة فرسان سومور بطلب فرنسي خط الجبهة إلى موقع المدرسة الجديد في تارب على نهر البيرينه، مخترقة الجيش الألماني بالعرض، يقودها رئيس الفريق الكولونيل دوليساردبير، الذي كنا نعرفه جيدا من زمن السلم[1].

ليدل هارت والاستخبارات

كان يوجد ثمة أممية فروسية في حينه، واحترام متبادل معترف به بين الجنود، يتخطى الحدود، يشمل حملة الأسرار حتى خلال الحروب، خاصة منهم أصحاب المناصب الأعلى. فلا يستغربن المرء، إن هو قابل رجلا ينتمي إلى هذه المجموعة، مع أنه لم يكن، والحق يقال، على علاقة مباشرة مع الاستخبارات، مع أن عقله الأريب يجعله من المتخصصين في عملها، هو ليدل هارت، الكاتب العسكري البريطاني الأعظم، الذي ألقى يوم 24 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1941، في حمأة الحرب العالمية الثانية، محاضرة حول جهاز الاستخبارات السري، كانت على درجة من الموضوعية والتسامي عن التحزب، جعلت مجلة الدفاع الألمانية الشهرية، المختصة في سائر مسائل الحرب، المسماة علوم الدفاع، تعيد نشرها بعد عشرين سنة[2] بالألمانية، من دون أن تغير كلمة واحدة منها، تأكيداً لتطابق رئيس بين التصورات الألمانية والإنجليزية في هذا المجال. يقول ليدل هارت في مطلع محاضرته: «يعرف كل من درس تاريخ الحرب بجدية أن أساتذة الجاسوسية من الرجال والنساء، الذين يلوح شبحهم في الحكايات الشعبية، لعبوا دوراً

(1) أولريش ليس: الجبهة الغربية 1939-1940 .بيكرمانجيموند 1959، ص51.

(2) علوم الدفاع، تشرين أول/أكتوبر 1961، ص645 وما يليها، وكذلك ص 648.

ضئيلاً نسبياً في الحروب الفعلية، وفي عمل أجهزة الاستخبارات حسنة الأداء. ذلك أن عدداً قليلاً من هؤلاء العملاء كان يمتلك المعارف العسكرية الضرورية، التي تمكنه من فهم ما يحصل عليه من أخبار. كما أن معظمهم كانوا غير موثوقين». كانت الحرب في عامها الثالث، حين كتب هذا النص. بالمناسبة، كان ليدل هارت على قدر من الاستقامة دفعه إلى تجاوز الأعمال العدائية الناشبة بين بريطانيا العظمى وألمانيا، والإقرار بأن العسكريين الألمان تعلموا منذ الحرب العالمية الأولى الكثير في مجال الاستخبارات السرية أيضاً، وجعله يؤكد في كل مناسبة على مؤهلاتهم العسكرية الرفيعة. من المعروف أن كل كتاب عسكري يصدر على سبيل المثال في إنجلترا سرعان ما يعرف في ألمانيا، ويثير اهتماماً أكبر بكثير مما يثيره في بلده الأصلي، كما يناقش الألمان كل إصدار جديد له. هذا الحاجة الحية إلى المعلومات ترجع طبعا بالفائدة على استخباراتهم، التي تعرف كيف تقوِّم أي كتاب جديد، فتبقى «دوماً متألقة». كمثال على ذلك، يقدم ليدل هارت حكاية مسلية يدين بها إلى الجنرال فوللر، الكاتب العسكري البريطاني الآخر الشهير: عاد فوللر مرة أخرى إلى ألمانيا، وهو ما حدث مراراً في فترة ما بين الحربين، حيث كان يعتبر ضيفاً مرحباً به في القيادة العليا للجيش، باعتباره صديقا لألمانيا وخبيراً متميزاً في القضايا المتعلقة بسلاح المدرعات. وقد زار القسم الذي كان يجمع معلومات من روسيا، المسمى «الجيوش الأجنبية شرق»، حيث عثر على ملف كبير الحجم عنوانه «فوللر»، جمع وسجل المعالج المختص المقالات، التي كتبتها الصحافة السوفياتية عن فوللر ونظرياته، مع تحليل مسهب لكل مقالة، يعرّف بما أثار اهتمام الروس أكثر من غيره فيها، واستخلاص انعكاساتها على تكتيك سلاح مدرعاتهم الفتي وتنظيماته. هذه الطريقة تركت انطباعاً عظيماً لدى فوللر، بحسب ما أخبر ليدل هارت مسمعيه به، بينما كان ينصحهم باتباعها.

ماذا يطلب ليدل هارت من ضابط استخبارات مجد؟. إنه يطلب شهوة المعرفة والعمل والمنهجية العلميتين. ويلخص مطالبته في نقاط خمس، أقدمها هنا باختصار لا يخل بمعناها. يتفق ليدل هارت عموماً مع النظرات الألمانية، فيطالب بـ:

1 ـ التمكن من اللغات الأجنبية، ومعرفة جدية بتاريخ وجغرافية واقتصاد البلد المراقب، ومعرفة روح شعبه، وطبيعته القومية، وعقيدته العسكرية، وقبل كل شيء ظروفه السياسية.

2 ـ القدرة على تجميع «مزق أخبار» وتكوين كل منطقي منها.

3 ـ الفضول وشهوة المعرفة الهادفة بما هي باعث رئيس «للبحث حول العدو». كان ليدل هارت يعتبر هذا كله المبدأ الديناميكي والرجولي للاستخبارات.

4 ـ دقة التحليل والسلوك النقدي حيال «المصادر»، مثلما هو الحال في تدوين التاريخ.

5 ـ موضوعية لا مفر منها في جميع الأحكام !. لا يحق لضابط الاستخبارات التراخي حيال أي تصورات رغبية، سواء أكانت تصوراته أم تصورات رؤسائه.

هذه النقطة الخامسة من طبيعة حاسمة غالبا، كما يؤكد تاريخ الحرب. لذلك، لا يكفي بأي حال أن ينجز ضابط أو ضباط الاستخبارات تحليلاتهم للأوضاع، ويقدموها بصياغات موفقة إلى الجهات الأعلى أو يقرأها في حضورها، بل يجب عليهم أن يجدوا آذاناً صاغية «فوق»، بقوة أحكامهم المعللة، وإن واجهوا المصاعب بسبب ذلك. ولا يجوز لهم بأي حال مسخ تقويمهم للعدو بتحويله إلى تقارير كيفية، كما كان يحدث غالباً، الأمر الذي يبين مرة أخرى كم يحتاج معالجو أوضاع العدو في هيئات القيادة العسكرية الأعلى إلى قوة الطباع والحنكة في عملهم. يمتلك ليدل هارت من النزاهة

1. هتلر والجنرال ألفرد يودل يدققان مخططات الجبهة السوفيتية.

2. تشرشل مع أنتوني إيدن (إلى اليسار) والجنرال جورج مارشال، والجنرال دوايت إيزنهاور، وخلفه برنارد ل. مونتغمري (واقفاً إلى اليمين).

obeikandl.com

3. ستالين مع أركان حربه.

4. ستالين وروزڤلت وتشرشل في اجتماع طهران سنة 1943.

6. الجنرال إريك مانشتاين في عربة قيادة معركة لينينغراد مع الجنرال شولتز والجنرال آيسمان.

5. الجنرال رومل على مصفحة في صحراء ليبيا سنة 1941.

7. الجنرال هاينتس غودريان في عربته يتفقد قواته في شباط/فبراير 1943.

8. الجنرال فالتر فون براوختش (إلى اليمين) والجنرال فراتز هالدر.

9. قائد سلاح الجو الجنرال فيلد مارشال إريك ميلش.

10. قائد البحرية الأدميرال إريك ريدر مع الأدميرال كارل دونيتز.

ما جعله يبين بمعونة حدث وقع خلال الحرب العالمية الأولى كيف تم التجني آنذاك على الحقيقة. وهو لا يراعي المارشال اللاحق دوغلاس إيرل أو هايج، قائد الجيوش البريطانية الأعلى في شمال فرنسا والفلاندرن، الذي لم يكن قليل الأهمية بين قادة الحرب العالمية الأولى، وسجل سنة 1917 نجاحات هجومية، توصل بنتيجتها إلى ضرورة القيام بهجوم بريطاني منفرد في الفلاندرن ـ من دون دعم فرنسي، وهي فكرة سرعان ما ملكت عليه لبه، وجعلته يرتكب خطيئة تتعارض وروح الاستخبارات. آمن العميد جون شارتيريس، رئيس استخبارات هيج، الذي كان من أركانه في الهند، برأي ساذج جعله يعتقد أن من واجبه دعم نوايا قائده الأعلى، أياً كانت. لذلك زود العميد هيج بأرقام مبالغ فيها حول خسائر الألمان، أخذها هذا معه إلى إنجلترا، حيث كان يريد إذنا بالهجوم المنفرد، وقام من جانبه بمزيد من المبالغة في خسائر الألمان، إلى أن زايد على نفسه وزعم أن الاحتياطي الألماني سينتهي في نهاية السنة. عندما تمت الموافقة على هجوم الفلاندرن، تجاهل هيج ورئيس استخباراته العوامل، التي يلح عليها ليدل هارت بصورة خاصة، وهي:

1 ـ المناخ: حسب المعطيات المناخية في السنوات الثمانين الأخيرة، لم يكن ممكناً توقع فترة من الطقس الجيد تتجاوز الأربعة عشر يوما في الفلاندرن.

2 ـ الأرض: كانت الأرض في الفلاندرن أرض مسير في معظمها مليئة بمصارف المياه. وكان من المؤكد أن نيران المدفعية، التي ستدمر مصارفها، ستحولها إلى مستنقع، سيجعل من الصعب استخدام «دبابات» السلاح المدرع الجديد، أو سيعيقه بدرجة كبيرة.

من المعروف أن هجوم الفلاندرن، الذي قام به هيج في تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1917، قد فشل: فقد غرق في مستنقعات بناشندال المخروطية. وبدلاً من أن يناقش الوضع بصورة شاملة، انصاع المخططون

للفكر الرغبي، ولم يدرك القائد الأعلى ورئيس استخباراته أهمية امتلاك تقويم دقيق للحقيقة في الحرب، ولم يفهما أن هذه يجب أن تقال بصراحة، ما دامت القضية لا تتعلق فقط بانتصارات أو إخفاقات عسكرية، بل بوقائع وحيوات بشرية. إن من يعالج أوضاع عدوه، يجب أن يراعي اللحظات المشخصة جميعها، التي يمكن لهذا الإفادة منها. ولا يجوز أن تتوقف حساباته عند قوته أو ضعفه العدديين. وعليه أن يأخذ في حسبانه الصعوبات المحتملة، قبل أن يقلّب القادة أو القائد الأعلى الأمور على أوجهها المختلفة، ويقرروا ما إذا كان باستطاعتهم، أو باستطاعة وحداتهم، تحقيق الأهداف المحددة، بما لديها من وسائط وقدرات.

لا شك في أن ليدل هارت كان شجاعا، حين بادر إلى الاعتراف بفشل قائده هايج، وحلل إخفاقه دون تحفظ. إنه لم يفعل هذا لرغبته في ممارسة نقد سلبي، بل من أجل استخلاص العبر مما جرى، ولإضاءة الوعي بالمسؤولية. يقول الكابتن ليدل هارت: «إن الثقة والقدرة على التقرير هما الصفتان الجوهريتان للقائد. لكنهما من دون أهمية وخطرتان بالنسبة لعمل رئيس استخباراته، حيث تتجسد الخدمة الجيدة، التي يقدمها إلى آمره، في الروح العلمية الصارمة والنهج العلمي الدقيق. إن تشجيع الآراء المسبقة، النابعة من ولاء مغلوط، هو الخدمة الأشد سوءاً التي يمكن للاستخبارات تقديمها». يكشف الإنجليزي بأقواله هذه الإشكالية الأصلية لجميع أجهزة الاستخبارات. وهنا تكمن جدارته التاريخية. إلى أي حد يستطيع نقيب أو رائد فرض نفسه في مواجهة جنرال، ولواء في مواجهة مارشال ميداني أو الآمر الأعلى؟. لم تخترع بعد الوصفة، التي تعطي الحق لمعالج معلومات من رتبة أدنى، وتمكنه من القفز فوق المبدأ العسكري الموروث، الذي يقول: الأمر هو الأمر، ومن إطاعة الأمر الوحيد الذي يوجد بالنسبة له: «أمر ضميره». إلى هذا، يؤكد الكاتب العسكري في محاضرته تأكيداً شديداً

على صفة أخرى، من الضروري أن يمتلكها كل ضابط استخبارات جيد، هي قدرة التصور الخلاقة. «إنها القدرة على رؤية ما يجري على الجانب الآخر من التل، ووراء خطوط العدو، وفي رأسه»، حسب تعبير ولينجتون. «إنها أكثر من موهبة ملاحظة ورصد الوقائع، وهي القدرة على جعلها حية، وعلى رؤية الوضع الذي ينشأ في الوقت المناسب، بحيث يمكن اعتراضه قبل أن يتطور إلى وضع جديد، غير ملائم»[1]. إن قدرة التصور الخلاقة هذه، تلد، متى قامت على أرضية علمية، ما يسمونه الحدس، أي «الإحساس الاستباقي بالحقيقة، الذي يوجه السلوك». هذا ما يقوله كلاوزيفتز عن هذا الموضوع، قبل أن يضيف محذرا: «إذا ما نسبت هذه الموهبة إلى الخيال، فإن هذا يكون تقريبا هو الخدمة الوحيدة، التي تطلبها الفاعلية الحربية من هذه الإلهة الطليقة، مع أنها تفسدها أكثر مما تفيدها»[2]. يقول كلاوزيفتز هنا كلاما صائبا بالمعنيين الإيجابي والسلبي.

في حالة هتلر، يصدق من دون تحفظ القول بتأثير الخيال المخرب على إدارة الحرب، التي لم تخضع لأي تفكير علمي، ولم تر إلا ما أرادت رؤيته، فخرجت أكثر فأكثر عن سكتها، وافتقرت إلى الثقل الموازن، الذي يمتلكه رئيس استخبارات يتمتع بالصلاحيات اللازمة ويكون مكانه «فوق». ولكن من كان يقدر أن يكون صنواً لهتلر، بعد انتصار سنة 1940 في الغرب، الذي ملأ طبيعته بالعناد؟. يقول كلاوزيفتز، هذا العارف العظيم بالبشر، ما نريد التأكيد عليه بإلحاح، استكمالا لأفكار ليدل هارت[3]: «ليس العناد خطأ العقل المدرك، بل هو معاندة ضد الفهم، لا يمكن أن تتكرس من دون تناقض داخل هذا العقل بما هو ملكته (الفهم). العناد هو خطأ الطبع. إن

(1) المرجع ذاته، ص648.
(2) كلاوزيفتز، ص 59.
(3) كلاوزيفتز، ص 57.

تيبس الإرادة، والإستثارة ضد ما يقوله الآخرون، يرجعان إلى نوع خاص من عشق الذات، يجسد أكثر من أي شيء آخر متعة السيطرة على الغير عبر فاعليه العقل الخاصة. ونحن سنعتبره ضربا من الغرور، مع أن الغرور يكفيه الظاهر، بينما يقوم العناد على التمتع بالأمر، فهو يصر على أنه على حق حتما، أو كان على حق حتما، كما أود أن أضيف.

يعاني ضباط الاستخبارات على الدوام من العناد والمكابرة. وعلى سبيل المثال، فإن الأميرال كاناريس، لم يكن يمتلك، سواء من حيث التنظيم أو من حيث الممارسة، المتطلبات التي يجب توفرها في رئيس استخبارات حقيقي يعمل في خدمة هتلر. وهو لم يعين في منصبه كي يمده بمعلومات صحيحة عن الوضع العام، ولم يكن بمقدوره إطلاقا القيام بهذه المهمة، بل عين من أجل إدارة جهاز الإبلاغ السري، الذي غالباً ما حصل على أخباره بطريقة مغامرة، أو عبر مشاريع مفعمة بالمغامرة، كتلك التي قامت بها الشعبة الثانية بمساعدة «البراندنبورغيين»، وحظيت بإعجاب هتلر، لأنها أثارت خياله، ولأن استراتيجيته مالت أكثر فأكثر إلى الوهم، مع أنه لم تنجم عنها في أي وقت نتائج تقارب ولو من بعيد تلك التي ترتبت على نشاط لورانس العربي إبان الحرب العالمية الأولى[1].

من مركز الاستخبارات البريطانية

مثلما وجد الألمان في شخصي الجنرالين ليس وجيهلن خبيرين بارزين في الاستخبارات الحديثة، امتلك الإنجليز بدورهم خبيراً متميزاً فيها هو اللواء السير كينيث سترونج، الذي حقق إنجازات خارقة، بمعونة مبادئ

(1) توماس إدوارد لورانس، 1886-1935، آثاري وباحث لغوي، نظم في الحرب العالمية الأولى كوكيل لبريطانيا ثورة العرب ضد الأتراك.

وطرق تقدمية. ومع أن ضربا من القرابة الاختيارية كان قائما بين الضابطين الألمانيين وقرينهما البريطاني، فإن الأخير وجد نفسه في موقع أفضل بمعنى الكلمة، لأن المنظمة، التي قاد استخباراتها العسكرية، بقيت متوطنة في التقاليد البريطانية، التي وهبت مجتمع الرجال الإنجليز أنماط سلوكهم الحرة، وجعلت الاستخبارات البريطانية الأفضل والأنجح بين استخبارات الدول الأوروبية المنخرطة في الحرب[15]، وهو ما نجم بالدرجة الأولى عن أنها كانت منظمة بأسلوب يكفل لها تحقيق مهام موزعة بطريقة عقلانية، وأن منسقها كان ديبلوماسيا يضع السياسة في أعلى سلم أولوياته، وله صدقية لدى الحكومة، التي لم تكن تتردد، من حين لآخر، في تجاهل المعلومات التي يقدمها إليها، ولأنه كان يجب على جهاز الاستخبارات السري أخذ ما هو إنساني ـ إنساني إلى أبعد حد ـ بالحسبان. إنها لإثارة ما بعدها إثارة أن نرى بأي تلقائية يخبرنا كتّاب المذكرات البريطانيون بهذا، وكيف يحجمون عن محاكاة الألمان في بناء «الأبطال» وفي إضفاء طابع مثالي على بواعثهم، وكيف تحتجب الأعمال الحقيقية في نور أضوائهم الباهرة.

إذا بحث المرء عن اسم بيل كافنديش ـ بينتينك في الأدبيات الشعبية حول أجهزة الاستخبارات السرية، فإنه لن يجده. كما أن هذا الاسم لا يذكر في مراجع تاريخ الاستخبارات السرية، التي وضعها ماكس جونسنهويزر[1]. بدوره، لا يذكره بوشهايت في نظرته الشاملة: القوة المغفلة. كان سترونج أول من ذكره في كتابيه، اللذين ظهرا منذ سنة 1968، وقدما للرأي العام العالمي[16]. وقد فعل هذه لسبب واضح هو أن كافنديش لم يرتبط بصلة مع الجاسوسية من النمط المثير، رغم أنه كان من الصف الأول بين حملة

(1) جونسنهويزر، ماكس: تاريخ جهاز الاستخبارات السري، تقرير عن أدبياته وبيبلوغرافيا. 434 صفحة، فرانكفورت على نهر الماين، 1968.

الأسرار. مهما يكن من أمر، فإن سترونج منحه أفضل شهادة، عندما أخبرنا عنه[1]: «عندما دخل بيل كافنديش إلى المنصة في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1939، كانت الاستخبارات البريطانية عرضة لفوضى شديدة وتبحث عن قيادة ملائمة. وكان تولي كافنديش قيادتها إسهامه الأعظم فيها خاصة وفي المجهود الحربي عامة. .. فقد عرف بعد حين أنه يجب تطويرها على أسس تنظيم تخطيطي فعال، إذا كان يراد لها أن تؤدي وظيفة مفيدة في المجهود الحربي، وتلعب الدور اللائق بها». كمنت السمة الخاصة لمنسق جهود الاستخبارات البريطانية الفائق النجاح هذا خلال الحرب العالمية الثانية في بساطته وعدم ميله إلى الظهور. وقد بقي بعد نهاية الحرب وراء الكواليس أيضاً، فلم يكتب مذكراته أو يسمح بوضعه تحت أنظار الرأي العام، عبر المقابلات الصحفية. كل ما في الأمر أن أحد معاونيه، رجل ثقتنا سترونج، كسر الصمت المضروب حوله، ووصفه بالطريقة الحية التي ينفرد بها الأنجلوساكسون، ممن توجه خفة الدم ومعرفة البشر أقلامهم. إليكم الآن تخطيطا أوليا لصورة الرجل: «اكتشف زملاؤه فيه رئيسا ممتازا، تميز بالحصافة، والتلقائية، وحسن الطوية، يحرص، بنظرته الذكية الماكرة التي تخترق صميم الأشياء، على الاتكاء على ظهر مقعده وقد ضم رؤوس أصابعه بعضها إلى بعض، ليستمع بأناة، ويحافظ على موضوعية الأحاديث التي يتابعها، بالتدخل من وقت لآخر بطريقة تخالطها مسحة مزاح خفيف، يكسر بها حدة تعارضاتها. وبما أنه كان يمتلك تشاؤم ضابط الاستخبارات الجيد، فقد بقي دوماً متقدما على بقية أعضاء اللجنة بمسافة عظيمة».

رسم سترونج صورة حية عن زملائه أيضاً، تصحبها مسحة من السخرية بطبيعة الحال، تبرز بعض الشيء ما كان نموذجيا فيهم[17]. وهو يصف زميله من

(1) سترونج، الكتاب الثاني، ص 186.

سلاح البحرية بالطريقة الآتية: «تبنى رئيس استخبارات البحرية، نائب الأميرال جون جودفراي، السلوك التقليدي لاستخبارات سلاح البحرية البريطاني، الذي آمن دوماً بتفوقه على استخبارات الجيش وسلاح الجو. وكان حريصاً على النظر إلى رجال الاستخبارات ذوي الآراء المغايرة لآراء استخباراته كـ «بحارة مشاكسين» لا بد من معاقبتهم بشدة. لقد كان من دون شك الشخص المهيمن بين رؤساء استخبارات فروع القوات المسلحة الثلاثة، وأستاذ التعميمات. ومع أنه لم يكن هناك قضية واحدة من طبيعة بحرية صرف، فإنه رفض بحدة أي ميل إلى تجاهل نفوذ البحرية المحتمل عليها». يضيف سترونج أن بقية رؤساء الاستخبارات كانوا مجرد أفراد، بمن فيهم هو ذاته. لهذا السبب، كان على مؤهلات كافنديش الديبلوماسية أن تثبت جدارتها، ومع ذلك فقد حدث ما كان يعتبر في البداية مستحيل الحدوث: فقد سارع رؤساء استخبارات فروع القوات المسلحة الثلاثة، الذين انضم إليهم ممثل مدني من وزارة اقتصاد الحرب، إلى الاعتراف برئاسة مدني وديبلوماسي للجنتهم، مع أنه لم يكن يمتلك بالأصل أي خبرة في مجال العمل الاستخباري. وسرعان ما بانت فائدة وجود رئيس يقف فوق المصالح الجزئية، يمتلك فضلاً عن ذلك خبرات ديبلوماسية كبيرة، وصلات وثيقة مع وزارة الخارجية. بالمناسبة، كان هذا الحل الأفضل، لأن أي رئيس من رؤساء أجهزة الاستخبارات لم يكن مستعداً لقبول رئاسة واحد من زملائه![1].

أهم أعمال الاستخبارات البريطانية

بين 1939 و1943

يصمت سترونج عن طريقة جهاز الإبلاغ السري في بريطانيا العظمى،

(1) المرجع ذاته، ص 188.

المسمى الجهاز السري، في الحصول على المعلومات. فلماذا؟. ليس لدينا غير تخمينات ترى أن الصلات السرية، التي قامت في سنوات الحرب الأخيرة مع ألمانيا، لم تقطع تماماً، كما كان هناك شبكة من العملاء حسنة الأداء في بولونيا، قدمت معلومات كثيرة حول تحركات القوات الألمانية، وإلا لما صار كافنديش أول سفير بريطاني هناك بعد الحرب بفترة قصيرة. وعلى كل حال، فقد كانت الاستخبارات البريطانية على حق في خياراتها الكبرى الثلاثة، التي ارتبط بها وجود بريطانيا العظمى حتى سنة 1941، وهي غزو القوات المسلحة الألمانية للجزر البريطانية سنة 1940، والخطط الألمانية للاستيلاء على جبل طارق نهاية تلك السنة، وأخيراً توقيت ومآل حرب هتلر ضد روسيا سنة 1941. صحيح ان الأمر كان يتعلق بمسائل سياسية وعسكرية، إلا أن السياسي كافنديش طرح في كل حالة من هذه الحالات التشخيص الصحيح، حسب قول سترونج، فقد كان على صلة وثيقة مع وزارة الخارجية، حصل بواسطتها، كما نعتقد، على معلومات تفوق في أهميتها أهمية معلومات الجهاز السري، جمعها ديبلوماسيون أصدقاء لإنجلترا، موجودون في أماكن ومواقع كثيرة.

كان الجسم الديبلوماسي في العواصم الأخرى ولا زال مصدر أخبار سرية، خاصة أثناء الحرب. وكان هناك أيضاً صلات عرضية، فما يعرفه السفير (أ) من بعثة ديبلوماسية معينة لا يلبث أن يعرفه الملحق (ب) في بعثة أخرى، الذي يوصله بدوره إلى (ج) في سفارة أخرى. بهذه الطريقة كان من الممكن، مثلا، الحصول على أخبار مؤكدة من مدريد، تقول إن الجنرال فرانكو لن يسمح بجر إسبانيا إلى حرب جديدة، نزولا عند إرادة هتلر. وماذا بشأن الغزو الألماني للجزر البريطانية، الذي بدا أن الألمان يكثفون استعداداتهم له، وسيقومون به في صيف سنة 1940؟. لقد صار مستحيلاً، بعد أن ربح الإنجليز المعركة الجوية فوق القنال وجزرهم، وتحولت

هجمات سلاح الجو الألماني إلى ضرب من تدمير الذات. هذا ما تنبأ به كافنديش في الوقت المناسب، فقد كان يعرف، بفضل سترونج أو زملائه في سلاح الجو، الأعداد الدقيقة للطائرات الألمانية، وقدرة صناعة الطائرات في ألمانيا، وكان يعلم أن باستطاعة إنجلترا اللحاق بها وتجاوزها، و: «أن للأسد أجنحة»، حسب قول تشرشل[18].

ماذا عن هجوم هتلر ضد روسيا؟. إنه سيتيح للجزر البريطانية الوقت الضروري للبقاء. ترى، هل عرف سترونج بموعده من أصدقائه في ألمانيا؟. على الأرجح، وربما عرف به أيضاً عبر «الروته كابيله». إلى هذا، أعتقد أن وطنيين بولونيين كانوا يتابعون بدقة التقدم الألماني في الشرق، ويخبرون لندن عنه باللاسلكي. فقد كان جواسيس اللاسلكي يعملون كمراقبين استخباريين في كل مكان من الأراضي المحتلة، وكانت محطات رصد اللاسلكي الألمانية تعرف ذلك. لكن الانتصارات الخاطفة في بولونيا والغرب والنرويج ضخمت مهامها إلى درجة جعلت وسائلها وقواها غير كافية وغير قادرة على التقاط محطات العملاء جميعها، أو إبطالها. مهما يكن من أمر، فقد تلقت بريطانيا العظمى معلومات إضافية من جميع أنحاء أوروبا، تكفلت بإبقاء الاستخبارات الألمانية في موقع متوسط، رغم الجهد الذي كان يبذله جهاز جمع المعلومات عن العدو في أقسام القوات المسلحة الألمانية الثلاثة، وجهاز الإبلاغ السري في شعبة مكافحة التجسس. يقول سترونج حول هذه النقطة: «إن نوعية العمل الاستخباري المنصب على مكافحة التجسس كانت ممتازة»[1].

لم تنفرد الاستخبارات البريطانية بالتنظيم الأحسن والقيادة الموحدة، بل كان لديها أيضاً المخبرون الأفضل، حتى عندما كانت بريطانيا العظمى تقاتل

(1) المرجع ذاته، ص 113.

وحدها ضد هتلر. ثمة إشارة مهمة إلى ذلك لدى سترونج: عندما اقتضت مناسبة ملحة تأسيس وكالة المخابرات المركزية سنة 1947 في أميركا، كان الأميرال روسكو هيلنكوتر أول من دعي لترؤسها، فلماذا؟. لأن الأميرال كان بين 1940 وكانون الأول/ديسمبر من سنة 1941 ملحقاً بحرياً لدى حكومة فيشي، وقدم خدمات قيمة لقضية الحلفاء، كما يخبرنا سترونج.

كانت اللجنة، التي ترأسها كافنديش، في وضع يتيح لها الحصول على المعلومات من مصادر كثيرة، موثوقة في الغالب، مكنتها من أن تعرف في وقت مبكر:

1 ـ بالاستعدادات لغزو إنجلترا، بعد خسارة الألمان المعركة الجوية. ثم تعرف بتخلي برلين عن الغزو.

2 ـ أن مشروع «فيلكس»، أو الهجوم على جبل طارق في نهاية سنة 1940، لن يحدث، لأن فرانكو قاومه.

3 ـ أن الاستعدادات لمشروع بربروسا بدأت منذ خريف سنة 1940.

الفصل الثاني

جهاز استخبارات دون جواسيس وعملاء مأجورين من أجل حماية الحياد السويسري

بعد الاستخبارات البريطانية، يمكن للاتحاد السويسري أن يفخر بالإنجازات المميزة لاستخباراته خلال الحرب العالمية الثانية. طورت سويسرا منذ الثلاثينيات من القرن الماضي جهاز استخبارات تدبر أموره من دون جواسيس وعملاء مأجورين، وحصل مع ذلك على المعلومات التي كانت تحتاج إليها البلاد لحماية حريتها السياسية. ذلك كان، في الحقيقة، واحدة من سخريات التاريخ، بالنظر إلى أن سويسرا، البلد المحايد الذي يقع بين دول أوروبية تخوض صراعات حافلة بالمتغيرات وحروبا مدمرة بعضها ضد بعض، كانت تعج بالعملاء ومراكز الجاسوسية ورجال الطابور الخامس، العاملين لهذه أو تلك من الجهات المنخرطة في الحرب. لقد غدت وكالة ألكساندر رادوس معروفة عالميا، على سبيل المثال. إلا أنه كان هناك أيضاً تجار أخبار صغار، يبيعونها للصديق والعدو، حتى ليمكن القول إن سويسرا لم تتدخل بفاعلية ضد هذا النشاط غير الشرعي على أراضيها، مع أن سنة 1939 دفعتها إلى وضع عسير، فرض عليها حماية وجودها السياسي، والعمل ضد من كانوا يهددونه، أي ضد «قوى المحور». لا شك في أن غالبية السويسريين وقفت من حيث قناعاتها بوضوح إلى جانب الديموقراطيات، وقدمت الدعم لاستخباراتها،

رغم عمل صحفي مجد مثل «باكبو» لمصلحة الاتحاد السوفياتي، لأسباب يكشف عنها عنوان كتابه: لم يحدث الانضمام[1].

وجدت سويسرا نفسها قبل الحرب العالمية الثانية في وضع يفرض عليها قدرا من اليقظة يفوق مثيلتها قبل الحرب العالمية الأولى، التي لم تتعرض خلالها لأي تهديد. أما السياق الذي كان يجبرها على اتخاذ تدابير استباقية، فنجم عن حقيقة أنها لم تكن تملك بعد الحرب العالمية الأولى أي جهاز استخبارات يستحق هذا الاسم، لأن حيادها كان يجعلها بغنى عنه، فضلا عن أن علاقاتها بفرنسا كانت ودية تقليدياً وخالية من عناصر الصراع، بينما فقد الرايش الألماني، الذي تعاطف معه بين سنتي 1914 ـ 1918 القائد الأعلى الجنرال فيلله وغالبية ميليشياته، قوته منذ سنة 1919، فلم يبق من سبب للحذر، وصار بوسع سويسرا الاكتفاء بقسم استخباري متواضع تابع للفرع الخامس في شعبة الأركان العامة، يذكّر من بعض الأوجه بقسم الإحصاء في وزارة دفاع الرايش قبل سنة 1933. لا عجب أن موازنة القسم كانت صغيرة تراوح بين عشرين وثلاثين ألف فرانك سنوياً، وهو مبلغ يكفي بالكاد لشراء الصحافة العسكرية العالمية المتخصصة ولتقويمها. ولا غرابة أنه تم الاستغناء عن خدمات مكتب المراسلات السري، فسويسرا المحايدة لا يجوز أن تسمح لنفسها بامتلاك جهاز كهذا، وهي لم تكن بحاجة إليه، على كل حال، حسب اعتقاد من قرروا شؤونها في الثلاثينيات من القرن العشرين.

لكن التوترات الأولى بين سويسرا وبين جيرانها ما لبثت أن وقعت، مع صعود الفاشية في إيطاليا سنة 1922، وسيادة نظامين سياسيين مختلفين أشد الاختلاف في الدولتين، قام السويسري منهما على الحريات السياسية والمدنية، بينما استأثرت سلطة الدولة القومية، وتقويتها، باهتمام إيطاليا. في

(1) بونتر، أوتو: لم يحدث الانضمام. بيرن 1967.

ظل هذا التعارض، هاجر إيطاليون اتخذوا الحرية عقيدة لهم، بينهم شخصيات بارزة كالشاعر إيجناصيو سيلونه، إلى سويسرا، وفي نية عدد غير قليل منهم العمل ضد إيطاليا الفاشية. من جانبه، لم يخف نظام موسوليني رغبته في الاستيلاء على تيسين، حيث الإيطالية لغة السكان. لم تكن سويسرا دولة قومية، بل اتحاد قوميات أربع تعايشت طواعية منذ مئات السنين، وحمت دستورا مشتركا صان حريتها. وهذا ما بدا لبعض القوميين المعاصرين نشازا مستفزا، سوغ رفضه العالم التصوري للرايش القديم، الذي اعتقد أن فكرة الدولة القومية تسيطر على السياسة الأوروبية منذ الثورة الفرنسية ؛ وهو اعتقاد تبناه كثير من قوميي ألمانيا بعد استيلاء هتلر على السلطة سنة 1933، الذي سرعان ما وصلت نتائجه إلى سويسرا، بصورة مباشرة وغير مباشرة، مع فرار أعداد متزايدة من المهددين إليها، عبر بحيرة البودنسي، كاليهود والشيوعيين، والديموقراطيين الاجتماعيين، والليبراليين، والليبراليين اليساريين، والمواطنين الأحرار، ممن رفضوا ببساطة العيش في ظل حكم شمولي، وكان بوسعهم الإنفاق على أنفسهم في المهجر. من جانبها، وجدت سويسرا نفسها مجبرة على إظهار شيء من عدم الاكتراث حيال عدد غير قليل من هؤلاء المهاجرين.

بدأ القضاء على الحريات الديموقراطية في ألمانيا مع سنة 1933. وحدث شجار بين الصحافة السويسرية ذات النزعات الحرة ـ وفي مقدمها جريدة زيوريخ الجديدة ـ وبين الصحافة الألمانية «التي تم تنظيمها». ثم تصاعدت النزاعات بقدر ما حقق هتلر من نجاحات سياسية وغدت سلطته محسوسة وراء الحدود، وزاد أنصاره والمتعاطفون معه في سويسرا، إلى أن بلغت في السنوات الخمس التي تلت سنة 1933، حدا جعل الدولة الكبيرة في الشمال، التي كانت ذات يوم صديقة سويسرا، تتحول إلى عدو محتمل لحريتها، خاصة وأنها تطورت من دولة ضعيفة سياسيا ومتأخرة عسكريا إلى

بلد واثق من نفسه، تسلح بسرعة واكتسب وزنا سياسيا تعاظم من سنة لأخرى، بينما كانت قوة فرنسا تتفتت شيئاً فشيئاً، وتتكسر معها مطالباتها بالهيمنة الأوروبية، مع ما صاحب هذا كله من علامات مقلقة، تمثلت قبل كل شيء في إعادة التجنيد الإجباري العام إلى ألمانيا في آذار/مارس من سنة 1935، بعد سنة من احتلال بلاد الراين، الذي قلب الوضع الاستراتيجي في أوروبا رأسا على عقب، كما لا بد أن يكون قد أدرك السويسريون أيضاً.

في هذه الأثناء، لم تفعل فرنسا شيئاً غير تقديم احتجاجات ورقية، دلت على الضعف السياسي وعززت جموح هتلر إلى العدوان. بالمقابل، قررت سويسرا تكريس اهتمام نشط لأمنها، وتحديث دفاعها وجيشها، وجعلها تواجه سنة 1936 ثلاث ضرورات، بمنظار السياسة الدفاعية / الأمنية:

1 ـ إحياء روح الحرب نصف النائمة، قبل كل شيء لدى العمال وممثلهم السياسي الأكثر أهمية في سويسرا: الحزب الديموقراطي الاجتماعي.
2 ـ تحديث القوات المسلحة، واتخاذ تدابير دفاعية إضافية تزيد المخاطر، التي سيوجهها أي مهاجم محتمل.
3 ـ تأسيس جهاز استخبارات عالي الفاعلية، يمد سويسرا بمعلومات عن الأحداث والنوايا الحربية السياسية، خاصة لدى «الجار» الشمالي.

وقد حلت سويسرا هذه المشكلات، وقدمت إضافة إلى ذلك، وبطريقة غير مألوفة، مثالا على الفاعلية التلقائية، التي يمكن أن يقوم بها مكتب استخبارات «خاص». في هذا السياق، برز رجل لعب دور القوة الدافعة للعمل، رفض أن ينتظر الدولة والأحزاب الثقيلة الحركة أو حتى الجهاز الإداري، ووضع نفسه في خدمة الهيئة المجتمعية العامة بمجملها. من جهة

أخرى، دل قبول السويسريين بما قام به على حسهم السياسي ويقظتهم ومبادرتهم، وأكد أن أمرا كهذا لا يمكن أن يحدث إلا في بلدهم. أما الرجل الذي بادر إلى القيام بما كان ضروريا، وإلى الحصول على الأخبار على مسؤوليته الخاصة، فلم يتم تكليفه رسميا بالعمل، ولم يكن عسكريا أو سياسيا محترفا، بل كان «مجرد» مقدم في الميليشيا، وتاجر جملة باع واشترى أجهزة التصوير والأفلام والسلع المشابهة، حتى غدا الرجل الأول في هذا المضمار. إنه هانس هاوسمان[1]، الذي أيقظ خطوة خطوة إرادة الدفاع لدى السويسريين، وغداً أحد أهم الوجوه في أجهزة الاستخبارات الأوروبية.

ولد هانس هاوسمان سنة 1896، وسكن في تاوفن من أعمال بلاد الألبنتسيلر. وكان مواطنا ورجل دفاع معتدا بذاته، ومنظما ممتازا، غدا في الثلاثينيات من القرن الماضي الناطق باسم جمعية الضباط السويسرية ورئيسها الصحافي، فأيد في مقالاته ومحاضراته إعادة إحياء جاهزية سويسرا الدفاعية، واكتسب حماسته الأولى للدفاع عن البلاد ـ وكان بالمناسبة فارسا متحمسا ـ من مشروع الدفاع، الذي قدم يوم 24/ 2/ 1935 وفاز بأغلبية 75 ألف صوت، فكان الخطوة الأولى على طريق إعادة إحياء إرادة الدفاع السويسرية، التي ما لبثت أن تلتها خطوة ثانية، قد تكون أكثر أهمية منها، هي كسب الديموقراطية الاجتماعية السويسرية للدفاع عن البلاد. لقد كانت المهمة صعبة أول الأمر، بسبب أرجحية الميول السلمية والأممية آنذاك في أوساط العمال ومجموعات المثقفين المتعاطفين معهم. هذا الموقف تبدل بصورة صاعقة سنة 1938، نتيجة تقويم واقعي للوضع، بعد أن اختفت النمسا كدولة مستقلة من الخارطة وأعلن عن قيام الرايش الألماني الكبير. من الآن

(1) انظر باختصار: هانس رودلف: سويسرا مركز للأخبار، ص 21 –23، «مكتب هاوسمان».

فصاعدا، لم يعد العدو المحتمل في الشمال وحده، بل صار في الشرق أيضاً، في فورالربرج. ثم وقع حدث آخر كان من الصعب وقوعه في هيئة مجتمعية عامة أخرى، فقد نصح رئيس الإدارة العسكرية السويسرية، مستشار الاتحاد مينجر[1]، الديموقراطيين الاجتماعيين بمستشار عسكري وخبير دفاعي لطالما كان بعض الرفاق يعتبرونه «عسكري النزعة» هو المقدم هانس هاوسمان. قال مينجر: ليس هناك من يستطيع أن يعرض بطريقة أكثر إقناعا السبب الذي يحتم دعم الديموقراطية الاجتماعية الدفاع عن البلاد، أعني منع «ضم» سويسرا إلى ألمانيا. وأضاف: إذا ما قيِّض لمجموعات شمولية أن تصل إلى السلطة في سويسرا، فإن وصولها سيتعارض مع تقاليد الحرية، أي مع حقها في تقرير مصيرها السياسي بنفسها. عندئذ ستختفي الديموقراطية الاجتماعية في سويسرا، كما اختفت سنة 1933 في ألمانيا. ألح هاوسمان على هذه الحجة، التي قيِّض لها أن تكون حاسمة، جعلت قائد الديموقراطية الاجتماعية السويسرية، المستشار القومي هانس اوبريشت، الشخصية بعيدة النظر وذات المستوى الرفيع من الشعور بالمسؤولية السياسية، إلى مؤيد للدفاع عن البلاد، فنالت الفكرة ما كانت تحتاج إليه من وسائل، وحظيت ـ وهذا كان أكثر أهمية من أي شيء آخر ـ بالموافقة والدعم الفكريين.

أتاح هذا التعاون موارد إضافية وضعت تحت تصرف استخبارات هاوسمان الخاصة، وساعدت على تبلور قوامها بالتدريج، بعد أن صار بمقدورها إقامة صلات جديدة بالأممية الاشتراكية والرفاق القدماء في ألمانيا، الذين كانوا عرضة لتشويه السمعة والاعتقال، وفقدوا مراكزهم ووظائفهم، وطوردوا وألقي بهم على قارعة الطريق، لكنهم حافظوا على روابطهم

(1) الأسبوع السويسري، كانون الأول/ ديسمبر 1971: مقابلة مع هانس هاوسمان.

الشخصية القديمة، بما في ذلك روابطهم مع الرفاق القدماء في سويسرا، الذين ما لبثوا أن تلقوا منهم بعض المعلومات السرية عبر الحدود، أخذت غالباً شكل أخبار متفرقة كانت على درجة كبيرة من القيمة بالنسبة إلى مكتب هاوسمان، لأنها كانت تعادل أفضل ما كان يمكن الحصول عليه «بصورة رسمية».

مكتب «ها» يعمل

واجه الدفاع السويسري ورطة منذ سنة 1936. فقد امتلك شعبة أخبار عملت تحت إمرة عقيد منفتح العقل في الأركان العامة هو روجيه ماسون، أحد ضباط الجيش المحترفين القلائل. لكنه كان واضحاً أن بيرن تريد تفادي الحصول على الأخبار بطريقة غير شرعية، لأن حياد البلاد التقليدي يحظر القيام بأنشطة كهذه. من هنا، كان من الأفضل أن يقوم رجل خاص، هو هاوسمان بالذات، بهذا المسعى، على أن يجمع بطريقة منهجية جميع أنواع المعلومات السياسية والعسكرية، التي يستطيع ومساعدوه الحصول عليها خلال أسفارهم الأوروبية. يقول هاوسمان في مقابلة أجراها في كانون الأول من سنة 1971 مع مجلة الأسبوع السويسرية: «لم يكن باستطاعتي كضابط محترف القيام بالأنشطة ذاتها، التي كنت أقوم بها كضابط ميليشيا». ثمة لحظات أربع أفاد منها مقدم الميليشيا السويسري في بناء مكتبه «ها»، نستشفها من هذه المقابلة[1]، هي:

1 ـ حقيقة أنه تحدث الألمانية كألماني وكانت له صلات عمل وثيقة في برلين خاصة، وأنه دخل بالصدفة في علاقة مع رجال نافذين في الرايش الثالث، حافظ عليها بطبيعة الحال. «لم يكن هناك ممنوعات في

(1) الأسبوع السويسري، كانون الأول/ ديسمبر 1971: مقابلة مع هانس هاوسمان.

أحاديثهم، بل كانوا يتكلمون عن أكثر الأشياء سرية. ويرجح أنهم كانوا يعتبرونني متعاطفا، ولم يكن لدي أي سبب يجعلني أصحح خطأهم». هذا ما قاله هاوسمان حرفيا في الأسبوع.

2 ـ حقيقة أنه كان ضابطاً ورئيساً صحفياً لجمعية الضباط السويسريين منذ سنة 1935، فقد كانت صفاته هذه تجعل منه خبيراً مهتماً بالأمور العسكرية، دون أن يلفت ذلك الأنظار إليه. يضاف إلى ذلك أنه كان هناك آنذاك ضرب من تضامن الضباط الغربيين، كثيراً ما كان يفعل فعله في مجال الاستخبارات السرية أيضاً. هكذا دخل هاوسمان في علاقة مع ضابطين ألمانيين شاركا في دورة رمي تقديري في سامبلون، قبل سنة من نشوب الحرب. يقول هاوسمان حول هذا اللقاء: «منذ تلك اللحظة، ربطتني صلات جيدة بالرجلين. وكنت أتصل بهما من وقت لآخر أثناء زياراتي إلى برلين، التي كانت أسبوعية تقريبا في تلك الفترة، وأقمت صلات بواسطتهما بأشخاص آخرين، جعلتني عرفت فيما بعد أشياء ما كانوا بالتأكيد سيتحدثون عنها، لو عرفوا من أكون... لكنه كان مهما بالنسبة إلى سلطاتنا آنذاك أن تعرف ما يجري بعيدا عن الأضواء في الرايش الثالث»، وخاصة تسليح القوات الألمانية الجاري على قدم وساق.

3 ـ حقيقة وجود علاقة بينه وبين الديموقراطية الاجتماعية، أتاحت له صلات وروابط دولية إضافية، لم يكن بحاجة إلى البحث عنها لأنها كانت متوفرة بصورة تلقائية.

4 ـ لم تكن سويسرا المحايدة تستطيع أن تقيم، بغير هذا الطريق «الخاص»، علاقات بأجهزة الاستخبارات أو الوكلاء الأجانب، وأن تتبادل المعلومات على مبدأ «خذ وأعط» القديم. وقد قام هاوسمان بهذا العمل، فهو يذكر بين المتعاونين معه إنجليز وفرنسيين وأميركيين وقبل

كل شيء تشيكيين. ويزعم أنه كان قبل الحرب على اتصال وثيق بالمبعوث مازاريك.

كان هاوسمان رجل أعمال دولياً ووطنيا سويسريا في آن معا. وقد مارس الاستيراد والتصدير منذ الفترة التالية للحرب العالمية الأولى، فلم يكن بحاجة إلى تأسيس شركات وهمية، يقيم عبرها صلات لا تلفت الأنظار إليه، إلى جانب صلاته العادية. إلى هذا، كان عمله كتاجر موثوق وضابط ميليشيا ورئيس صحفي لجمعية الضباط السويسريين يمنحه رصيدا سياسيا وأخلاقيا، يجعله شخصا يأتمنه المرء على أسرار الدول والجيوش، التي يحجبها بالتأكيد عن غيره، فلم يكن بحاجة إلى شرائها أو تسقطها عبر الجواسيس، وكان يكفي ربط وتقويم تفاصيلها، التي تبلغ مسامعه. بمرور الزمن، عرفت الموهبة التآمرية الفطرية لدى «أصحاب المقامات» ضمن الاستخبارات السويسرية كيف تحصل على معلومات أكثر نفعا، في مناسبات شبيهة بلقاءات الملحقين العسكريين في سهرات برلين الذكورية، التي تحدثنا عنها في مكان آخر، تلقى هاوسمان خلالها معلومات كانت ستكلفه الآلاف، لو حصل عليها بواسطة الجاسوسية من الطراز القديم، علما بأن الكثير منها كان معلومات من الدرجة الأولى. عرفت سويسرا عددا كبيراً من الضباط الألمان حسني الطوية، الذين اعترفوا لهوسمان بتأنيب الضمير، أو عبروا تجاهه عن استيائهم من أن الآمر الأعلى، قائد ومستشار الرايش، وعد بالسلام والإعمار والتفاهم، لكنه توجه نحو حرب عالمية ثانية، كانت ذكرياتهم الحربية تجعل وقوعها أمرا مرعبا بالنسبة لهم. تمكن هاوسمان، شأنه في ذلك شأن سترونج، من إلقاء نظرة عميقة على ازدواجية العقلية الألمانية، التي ما لبث أن تعرف بعد برهة على جوانبها المضيئة والمظلمة، وعلى نقاط قوة وضعف الرايش الثالث ومجتمعه، وعلى الآمال والتعاطفات، التي أثارها في سويسرا أيضاً. لكنه عرف كذلك معلومات عن الإرهاب، الذي كان الممسكون

بالرايش الثالث يمارسونه في الخفاء. بذلك، كانت معرفته بألمانيا تبز منذ سنة 1939 معرفة معظم الألمان بها.

تشير سائر الظواهر إلى أن هاوسمان كان ذا موهبة طبيعية وفطرية في الاستخبارات، وأنه تصرف بالطريقة التي طلبها ليدل هارت من ضابط ناجح فيها، وافترضت امتلاكه شهوة المعرفة، وبعد النظر، وحدة الذهن والمكر في ظروف معينة، وموهبة القدرة على التخيل قبل كل شيء، فضلا عن السرية، التي تعتبر مطلبا أول بطبيعة الحال. وهي صفات كان هاوسمان يمتلكها، لذلك كان يستطيع تقمص وظيفته دون إزعاج، والتعلم من تجاربه. بالإضافة إلى ما سبق، أفاد هاوسمان بوضوح من أصدقائه التشيك، الذين بينوا له كيف يجب أن يقوّم بطريقة منهجية صحافة ألمانيا الإقليمية، ويعرف منها مواقع القوات المسلحة أو مطارات سلاح الجو الجديدة، وأطقمها وحامياتها. هذا كله، مكنه من إبقاء المكتب «ها» في إطار متواضع، وجعله يكتفي بنفقات قليلة على موظفيه، وهو الذي كان يشغل أول الأمر غرفاً ثلاث في تاوفن، ويشغل سكرتيراً دائماً وسكرتيرة «ثابتة» وعاملة تلغراف متقاعدة تسهر على الاتصالات اللاسلكية. لا يتحدث هاوسمان عن البث اللاسلكي، وعن المحطات التي كان يتم الاتصال بها. هذا الطاقم الأصلي بقي على رأس عمله طوال الحرب، وكذلك عندما انتقل المكتب إلى فيلا شتوتس في لوزان، وواصل عمله هناك تحت اسم «بلاطوس» وكان على مقربة من مركز تجميع الأخبار الأول... وحافظ على استقلاليته. تلقى هاوسمان منذ سنة 1939 عوناً ثميناً من العقيد التشيكي كاريل سيدلاشيك، الذي كان قد عمل قبل ذاك في موقع مفتاحي لمصلحة جهاز الاستخبارات التشيكي، وكلفته الآن حكومة المنفى التشيكية في لندن بالعيش في سويسرا، لمتابعة العلاقات ومصادر المعلومات الدولية، وسكن في جالن عند حماة هاوسمان، حيث عاش تحت اسم مستعار هو «العم توم»... من الممكن أن

يكون سيدلاشيك هو الذي درب الهاوي روسلر على العمل الاستخباري، لأن الأخير عمل لصالح الاستخبارات التشيكية، وسيدالشيك كان أول ملحق عسكري تشيكي لدى سويسرا بعد الحرب[1]. مهما يكن من أمر، فإن المكتب «ها» بقي مؤسسة فريدة من نوعها بين أجهزة الاستخبارات الأوروبية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية. فهو لم يعرف جهازاً وظيفياً متضخماً، ولم يقم بأعمال لا جدوى منها، واستطاع قبل هذا وذاك التخلي عن جمع المعلومات بواسطة العملاء المأجورين، وأفاد من ثلاثة أنماط سلوكية إنسانية، بل مفرطة في إنسانيتها، هي:

1 ـ الحاجة العامة إلى تلقي الأخبار، التي تشتد بصورة خاصة تحت ضغط النظم الشمولية.

2 ـ تبجح بعض حملة الأسرار، الذين لا يستطيعون الحفاظ على أسرار الدولة والأسرار العسكرية، ويميلون إلى الإفصاح عنها «تحت أربع أعين» أو «في صحبة جيدة».

3 ـ وجود متعاطفين سياسيين، عاش كثيرون منهم في سويسرا خلال فترة الرايش الثالث بالذات، وخاصة في المناطق المجاورة لها مباشرة في فورتمبرج، بادن، فورارلبرج. وقد عرف هاوسمان كيف يفيد من هذه المصادر.

هكذا تطور المكتب «ها» إلى ذلك المركز الاستخباري في أوروبا، الذي حقق من دون أي شك أعظم انجازات استخبارية بأقل قدر من الطاقات، محدثاً بذلك سابقة لا مثيل لها في تاريخ أجهزة الاستخبارات[20].

(1) كورتس، ص 25 وما يليها: «النشاط الاستخباري في منطقة سويسرا لمصلحة دول ثالثة وسويسرا».

المتعاطفون وجهاز الاستخبارات السويسري

لم يخرج جهاز الاستخبارات السويسري الرسمي صفر اليدين من هذا الوضع، فقد كان لديه منذ سنة 1938 مخبرين آخرين غير هاوسمان، وإن كان كلاهما قد لاحق من حين لآخر المسائل ذاتها. كان مخبرو هاوسمان ـ لم يعرفوا معظم الأحيان أنهم مخبرون ـ في أغلبيتهم رجال أعمال ومتعهدين وضباطا أو كوادر نازية رفيعة، فضلا عن ديموقراطيين اجتماعيين سابقين وموظفي نقابات فقدوا سلطاتهم. بسبب جهله بالطبيعة البشرية، اعتقد النظام النازي بقدرة الرعب والتخويف على «محو» البشر ومسخهم إلى آمعات بلا حول أو إرادة. وطبق سياسته هذه على الجنود المحترفين، العاملين وغير العاملين منهم، الذين عاشوا في الرايش الثالث واعتنق معظمهم تصورا عن السياسة والحق والعدالة مغايرا لما آمن به معظم كوادر الحزب النازي، بدءا بـ«القائد» آدولف هتلر. لقد اعتبر هؤلاء الضابط السويسري ندا لهم، في حين باعدت هوة بلا قرار بينهم وبين مدير إقليم كـ«قائد النساء» شترايشر، فكان من الطبيعي أن تعود واقعة كهذه بفوائد كثيرة على استخبارات الجيش السويسري، التي استغلتها بلا تردد، لعلمها بوجود مجتمع تعددي بكل معنى الكلمة تحت سطح التماثل الظاهري للنظام النازي. لقد كانت هناك أقسام من هيئة الضباط تعطي قيمة حاسمة لمفاهيم محددة كمفهومي «المسيحية وأوروبا»، تزعمها العماد بيك بلا منازع، حسب ما تؤكد ذلك دراساته، وخاصة دراسته حول الحرب الشاملة، يليه اللواء أوستر، رئيس شعبة «مكافحة التجسس المركزية».

لذا، لا يثير استغرابنا إن اعتبره بعضهم أحد مصادر معلومات السويسريين[21]، خاصة وأنه كان مؤمناً بالمثل الروماني القديم القائل: «يجب الحفاظ على المعاهدات». صحيح أن لهذه نسبيتها في الحقل السياسي، كما

اكتشف بسمارك، الواقعي والذرائعي الذي قال بضرورة الحفاظ عليها طالما كانت مفيدة لطرفيها، وعرف أطرافها المتساوون هذا وجعلوه موجها لسلوكهم. ولكن كيف يكون أمر المعاهدات بالنسبة إلى الجبابرة والضعفاء؟. كيف كان الأمر، مثلا، مع معاهدات عدم الاعتداء، التي عقدتها ألمانيا الهتلرية مع بولونيا، والأراضي المنخفضة، وبلجيكا؟.

وكيف كان مع التأكيدات والضمانات الاحتفالية حول احترام حياد سويسرا؟. ألم يكن هناك خطر أن يقوم بعض الناس باستخدام المعاهدات المعقودة كمناورة تضليلية؟. ألم يكن هذا يعني نهاية النظام الأخلاقي، الذي قام عليه الغرب؟.

الاستخبارات السويسرية وقوات ألمانيا المسلحة

لا مراء في أن الاستخبارات السويسرية أفادت من هذه المجموعات. يتضح هذا قبل كل شي من العرض نصف الرسمي، الذي قدمه هانس رودلف كورتس: سويسرا كمركز استخبارات / سويسرا في استخبارات الحرب العالمية الثانية[1]. فقد عرفت الاستخبارات العسكرية السويسرية أحسن من أي جهاز استخبارات آخر القوات المسلحة الألمانية: سواء تعلق الأمر بتنظيماتها، أم بسلاحها وتسليحها، أم بتحركاتها العملياتية وأهدافها. وكانت مدينة بمعرفتها إلى تلك المعلومات بالدرجة الأولى، التي لم تصلها عبر الجواسيس والعملاء، ولم تدفع ثمنا لها، بل جاءت من مصادر تدفقت عليها بطريقة تلقائية، امتلكها السويسريون في ألمانيا، بين الضباط أيضاً. وقد بلغت هذه الصلات وزارة حرب الرايش، ثم القيادة العليا للقوات المسلحة، وحتى مقر القائد الرئيس، حيث كان ضابط ألماني يبلغ السويسريين من حين لآخر

(1) كورتس، ص49.

بمعلومات جوهرية مأخوذة من الوثائق السرية، كما يخبرنا كورتس[22].

هل كان العقيد أوستر من شعبة المكافحة المركزية يقف وراء مثل هذه المعلومات؟. ليس بوسعنا رفض هذا الافتراض بصورة تامة، فقد كان حساسا مثل بيك حيال قيام ألمانيا بخرق معاهدة تضمن حياد سويسرا. كما كان يعتقد كبيك أنه في حالة وقوع الكارثة النهائية، التي كان قد تنبأ وبيك بحدوثها، لا بد من القيام بأفعال تثبت وجود ألمانيا أخرى، ومجموعة أخرى من الألمان، تختلف عن الموظفين النازيين، الذين كانوا يمارسون أي ظلم ويرتكبون أي جريمة، بمجرد تلقي الأمر بذلك.

بهذه الخلفية الفكرية، قام أوستر بتحذير هولندا عشية الهجوم في الغرب، عبر أصدقائه من مواطنيها، ومنهم على سبيل المثال ملحقها العسكري ساس.

الرائد فايبل وخط الفايكنج

يجب على كل جهاز استخبارات امتلاك خطط استباقية، تجعله بحاجة إلى ما يسمى عملاء - رؤيويين، يفكرون في الحالات المستقبلية الممكنة الوقوع جميعها، ويعدونه لملاقاتها. لم يكن من قبيل المصادفة بالتأكيد أن الأركان العامة السويسرية أرسلت سنة 1936 مقدما شابا للدراسة في أكاديمية الحرب ببرلين، حيث كان عليه أن لا يكتفي فقط بالتدريب على العمل في هيئة الأركان، بل أن يراقب ما يحدث لمصلحة الاستخبارات العسكرية في بلاده. هذا المقدم هو ماكس ڤايبل، الرجل الذكي والطريف والأريب، الذي كان مرشحا لتولي الأركان العامة، واستطاع استغلال الفرص التي أتيحت لاكتساب أرضية معرفية شرعية حول القوات المسلحة الألمانية، وقدر له أن يكون، بعد حين، على درجة عظيمة من الفائدة لبلده، لأنه تمكن من كسب أصدقاء، بفضل التضامن بين الضباط الأوربيين، على غرار ما فعله المقدم

ليس، الذي تولى في فترة لاحقة قيادة «الجيوش الأجنبية غرب»، خلال خدمته في إنجلترا. لكن فايبل نجح خلال فترته البرلينية في بناء ما سمي «خط الفايكنج»، الذي تكرر ظهوره في الأدبيات المختصة بالاستخبارات السويسرية.

ليس معروفاً إلى اليوم من كان وراء «خط الفايكنج». يقول كورتس: «يتعلق الأمر لدى خط الفايكنج بخط استخباري بناه الرائد فايبل شخصياً، كان فيه محطات أخيرة كثيرة وصلت إلى داخل مقر الفوهرر الرئيس في ألمانيا، وصبت عندنا في محطة «بفالس» الخارجية من مركز جمع المعلومات. هذه المحطة الأولى للمعلومات، التي كانت لوزان مقرها الرئيس، كانت تحت قيادة الرائد فايبل. أما خط الفايكنج، فلم يكن أحد يعرف عنه شيئاً، باستثناء المعنيين به مباشرة، كما يقول كورتس، وإن كثر الحديث عنه لاحقاً. «أما سر الجهة التي بدأ منها في ألمانيا، وكيفية عمله، فلا زال محفوظا إلى اليوم»[1]. من المؤكد، يضيف كورتس: «أنه لم يكن مدير ديوان هتلر، مارتين بورمان، كما تلمح إلى ذلك مذكرات راينهارد جيهلن». ماذا كان هذا الخط؟. تدل إشارات كثيرة إلى أنه لم يكن يتيح تدفق معلومات مستمر، بل كانت مجرد محطة إنذار، مهمتها تحذير سويسرا، متى تهددها خطر. يؤيد ذلك التحذير التالي، الذي يذكر كورتس أن الحظ أرسله يوم 18 آذار/مارس سنة 1943 إلى سويسرا:

1 ـ صارت سويسرا مادة للحديث ودخلت بذلك في دائرة الخطر.

2 ـ سنخبركم خلال أسبوع إلى أسبوعين حول ما إذا كانت قد وضعت مخططات عملية.

(1) كورتس، ص 68 وما يليها.

3 ـ أظهروا من خلال لفتة مناسبة أن سويسرا لا يمكن أن تؤخذ على حين غرة».

أخبر ماسون، رئيس الاستخبارات السويسرية، قائد فوج الـ ss شيلنبرج بهذا التحذير. وكان قد زار سويسرا بصورة متكررة، وأقام صلة شخصية مع ماسون، الذي سأله إن كان هذا التحذير صحيحاً. تلك كانت سذاجة لا تغتفر، بيد أنها تصبح قابلة للفهم، إذا ما أخذنا بالحسبان موقف الضباط المحافظين من أمثال ماسون. هذا السؤال كانت له فيما بعد نتائج يقول عنها كورتس[1]: «لفت السؤال أنظار خبير الاستخبارات الألمانية إلى حقيقة أن سويسرا تلقت معلومة إنذارية، وأقنعه بوجود خط استخباري غير معروف بعد، يمتد من ألمانيا إليها، ودفعه إلى بدء عملية بحث فورية عن مصادر الخيانة في ألمانيا، وإلى توقيف متهم يحتل موقعا مفتاحيا، بقي خمسة أسابيع رهن الاعتقال دون أن يتمكن من إثبات شيء ضده. كادت رعونة ماسون أن تحرم سويسرا من مصدر معلومات شديد الأهمية، وتؤدي إلى تسليم مساعديها المحبين إلى الشرطة السرية الألمانية».

هذه الوقائع حدثت في نهاية آذار/ مارس من سنة 1943. فهل كان لها علاقة «خفية» ببدء التحقيقات مطلع نيسان/ أبريل مع شعبة المكافحة الثانية في برلين؟. ألم يكن التحقيق، الذي قاده رئيس محكمة الحرب العليا رودر موجها في حقيقته ضد أوستر؟. لقد حدثت فضيحة لدى إلقاء القبض على القائد الخاص دوناني، تمت مداراتها بإعطائه إجازة إجبارية أول الأمر، ثم نقله إلى احتياطي الفوهرر، قبل تسريحه من الخدمة الفعلية في آذار/ مارس من سنة 1944، ووضعه منذ ذلك الوقت تحت رقابة صارمة. بذلك قام شيلنبرج بخطوة حاسمة أخرى قربته من هدفه، تمثلت في تولي قيادة الاستخبارات العسكرية، وضم مكتب أمن الرايش الرئيس إليها.

(1) المرجع ذاته، ص 70.

حالف التوفيق الاستخبارات السويسرية في القضايا الأخرى أيضاً، فلم تكن بحاجة إلا إلى القليل من المعلومات حول سلاح الجو الألماني، بدءا من لحظة زمنية معينة. يرجع هذا إلى مصادفة صرف، تذكر بحادثة العاشر من حزيران/ يونيو سنة 1940، لكنها بقيت، على النقيض منها، مجهولة: يخبرنا قائد الفيلق ألمتقاعد الفريد إرنست في عدد كانون الأول/ ديسمبر من المجلة العسكرية السويسرية العامة تحت عنوان «الاستخبارات السويسرية في الحرب العالمية الثانية»[1]، ما يأتي: «بما أننا كنا ننطلق في تقدير موجودات الدبابات والطائرات من القوائم التي كنا نعتمدها في السلام، فقد توصلنا إلى أرقام مبالغ بها، وخاصة في ما يتعلق بسلاح الجو. لم نكن نعرف على سبيل المثال أن معظم الأسراب لا تضم ثلاث مجموعات، بل مجموعتين وأحياناً مجموعة واحدة فقط من الطائرات. لكننا توصلنا مطلع سنة 1943، بضربة حظ، إلى معرفة التنظيم الحربي لسلاح الجو الألماني، فقد تاه «لقلق الفيزلر»، وهو طائرة من سرب المطاردات كانت تقصد سيسيليا، غير أنها هبطت اضطراريا في ساميدان (أنجادين). وكان قائد الطائرة يحمل معه وثائق الخدمة المتعلقة بالأركان، ووثائق تتعلق بتنظيم سلاح الجو بأكمله، رغم أن أوامر القيادة العليا لسلاح الجو كانت تمنع ذلك بشدة. هذه اللقية كانت مثيرة للدهشة إلى درجة جعلتنا نعتقد أول الأمر بوجود خدعة حربية، ثم سرعان ما تبين أننا لم نكن على حق في ما ذهبنا إليه»[23].

مخبرو روسلر

لا بد، في هذا السياق، من قول كلمة عن المخبرين في ألمانيا، الذين أوصلوا معلومات مثيرة للاهتمام إلى الناشر روسلر ـ اسمه الحربي لوسي ـ في سويسرا. فقد توصلت الأبحاث اللاحقة إلى أن «فيرتر» كان موجودا

(1) كورتس، ص 20.

بالفعل، لكنه لم يكن موجودا كفرد، بل يرجح أنه كان اسم عدد من المخبرين. وقد لفت النظر هنا تكرار استفسارات المدير في موسكو عن أماكن وجود الفرق الألمانية، التي كان يأتيه الرد عليها خلال أيام قليلة. وبالمناسبة، يؤكد تحليل الرسائل اللاسلكية الملتقطة أن معلوماتها لم تأت من مصادر من الدرجة الأولى، بل من مصادر الدرجة الثانية والثالثة، وإلا لما حفلت بالغموض وعدم الدقة، الذي شابها. أما الأشخاص، الذين أوصلوا أخبارا إلى روسلر من برلين، فيرجح أنهم انتموا إلى دائرة معارفه القديمة في المسرح والمطابع، التي شاركته رفض الرايش الثالث. لكن عدداً كافياً من هؤلاء كان يوجد دوماً بين العاملين في مجلات القوات المسلحة. هذا ما يعرفه المؤلف من معايشة شخصية، بعد أن عمل سنة 1942 كضابط ارتباط بين مجلة الجيش وشعبة الفنون العسكرية في قيادة الجيش العليا. كان الممثلون والصحافيون والكتاب لا يرون في موقف المعارضين شيئاً مأسويا، خاصة عندما كان نقد الآخر يتفق موضوعياً مع مواقفهم. لكنني أظن اليوم أن بعضهم ربما كان قد ذهب إلى أبعد من ذلك. لقد تم تحطيم «الروته كابيله» في خريف سنة 1942، فهل كان تحطيمها تاماً أم كان لها ضرب من منظمة لاحقة؟. كان العاملون في المجلات المذكورة يعرفون الكثير، وكان بوسعهم معرفة المزيد، بحكم عملهم الصحفي واختلاطهم اليومي بالجنرالات والكتاب العسكريين المتخصصين. وكان لعدد منهم حق الدخول إلى الموزعين، المحاطين بالسرية، حيث كان توزيع المجلات يتيح لهم معرفة عدد الألوية والفرق والتشكيلات الخاصة، ومسارح العمليات الحربية والمناطق التي تعمل فيها. بل إن العاملين في المجلات كانوا في وضع يمكنهم من امتلاك نظرات عامة تفوق في دقتها تلك التي يمتلكها المنتسبون إلى دوائر القيادة العليا، الذين كانوا يرون قطاعاً واحداً وحسب من الواقع. ما قلته لا يثبت أي شيء، لكنه يطرح احتمال أن تكون الأخبار، التي كان روسلر يتلقاها من برلين، وتحمل اسم «فيرتر»، جاءته من أشخاص ينتمون

إلى هذه الحلقة البرلينية، مع أن الأمر لا يتعلق هنا بجواسيس بالمعنى الموروث للكلمة[24].

مواقع رخوة في الاستخبارات السويسرية

تلقت سويسرا خلال الحرب العالمية الثانية كما هائلا من المعلومات، وصلها عن سابق تصميم أو عن غير قصد من ألمانيا. في هذا السياق، برز أحد الصحافيين كمصدر متميز للأخبار، التي وصلت إلى سويسرا، كما يخبرنا بالتفصيل كتاب إمينيجر الموسوم: ك.ن كان يعلم، حيث كان يختبئ تحت الاسم المستعار ك.ن الصحافي الاقتصادي دكتور ك. ج. ماير، الذي عمل في السابق لمصلحة جريدة زيوريخ الجديدة[25]، وكان يمتلك كهاوسمان صلات ممتازة بدوائر الاقتصاد والسياسة والقوات المسلحة المقررة في ألمانيا، عرف كيف يضعها بمهارة رفيعة في خدمة الاستخبارات السويسرية. تترك قائمة المخبرين التلقائيين، التي ينشرها إيمينجر، انطباعا عظيما لدى من يقرأها. وتطرح السؤال حول ما إذا كان هؤلاء قد ثرثروا بمحض اختيارهم، أم محضوا شريكهم ثقة مطلقة، في حال كانوا في صورة ما يجري، وهي أن معلوماتهم لن تحمي سويسرا فقط، بل ستجد طريقها إلى أجهزة استخبارات أخرى، بمجرد أن يتم تقويمها بطريقة ملائمة، الأمر الذي لم ينفه أحد.

ثمة هنا شيء يثير الاهتمام، هو التوقيت الذي بدأ فيه نشاط روسلر لمصلحة رادو، والتوقيت الذي توقفت فيه شبكة الأخير نتيجة تدخل السلطات السويسرية الاتحادية. فقد تزامن التوقيت الأول مع بداية نشاط دالاس خريف سنة 1942 في سويسرا، ووقع الثاني نهاية سنة 1943، عندما انتفت بالنسبة إلى الحلفاء الغربيين الأسباب الإضافية، التي كان من شأنها تسهيل تقدم الجيش الأحمر نحو الغرب. كما أنهم تخلوا بهذا القدر أو ذاك عن وكالة رادوس في هذا الوقت بالذات، لأنهم لم يعودوا بحاجة إليها، بعد

أن كسبوا في تلك الفترة مصادر معلومات أفضل بكثير تحتل أعلى المناصب النازية، مثلما يجب أن يكون دالاس نفسه قد كسب بعضها أيضاً. ازدهرت، منذ نهاية سنة 1943، الخيانة في الرايش الثالث، علما بأن الخونة لم ينتموا إلى دائرة حركة التجديد المحيطة بالعماد بيك، بل انتسبوا بصورة رئيسة إلى مصالح الـ إس إس، لسبب بسيط هو أن من يصعد بسرعة يميل دوماً إلى البقاء بين المنتصرين، وإن تخلى عما كان ينتسب إليه لفظياً حتى الآن، ومال إلى عبادة ما كان كفاحه موجهاً ضده من قبل. هؤلاء الخونة في المراكز النازية العليا، هم الذين ألغوا حاجة الحلفاء الغربيين إلى الجاسوسية التقليدية، وكانوا بالتأكيد أكثر مخبريهم أهمية في ألمانيا عند نهاية الحرب، رغم أنهم لم يعرفوا ولم يعايشوا كل شيء[26].

ثمة قصة تروى في هذا السياق، لا تفتقر إلى جانب ساخر. يخبرنا السويسري كورتس عن «ضابط مراسل» ألماني هو قطعا مراسل في مقر الفوهرر الرئيس، كان يبلغ السويسريين بالتنقلات المهمة في وقت مبكر. يقول كورتس حرفيا: «هكذا عرفنا على سبيل المثال بنقل مقر الفوهرر الرئيس إلى تسيجنبرج، وقد تم قبل بداية الحملة في الغرب». هنا، يجب على من كان يعرف الأمور أن يصيب السويسريين بخيبة متأخرة، لأن ما نقل إليهم لم يكن صحيحاً. صحيح أن بناء قصر تسيجنبرج غرب بادناوهايم في تاونوس كان قد استكمل ليكون مقرا رئيسا للفوهرر، من أجل حملة الغرب، لكن هتلر لم يسكنه أبدا، فقد سافر يوم 9 أيار/ مايو سنة 1940 عن طريق هامبورج إلى «عش الصخور»، الذي كان قد تم إعداده مقراً رئيسا له في روديرت قرب مونسترآيفل، ووصل إليه في الخامسة وثلاثين دقيقة من صباح يوم العاشر من أيار/ مايو[1].

(1) هيلجروبر، أندرياس: استراتيجية هتلر. السياسة وإدارة الحرب 1940/ 1941. فرانكفورت على الماين، 1965: «المرشد إلى هتلر بين 1 ـ 9 ـ 1939 ـ 31 ـ 12 ـ 1941. ص 671.

كان السويسريون يخصون قصر تسيجنبرج باهتمام خاص، لأنه كان قد جهز بالفعل كمقر رئيس لهتلر، ودمر مطلع سنة 1945 بفعل هجمات جوية شديدة شنها طيران الحلفاء الغربيين، لكن ملاجئه صمدت. لا يسع المرء أن ينفي احتمال أن تكون الاستخبارات الغربية في سويسرا قد علمت من «المواقع الرخوة» في الاستخبارات السويسرية، التي لم ينف أحد وجودها، بأهمية القصر كمركز قيادي، وحاولت القضاء عليه. لقد احترق القصر، الذي كان آنذاك مقر رئيس للقائد الأعلى في الغرب، وإن لم يصب أحد فيه بأذى، بفضل ملاجئه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

حول صدقية الجاسوسية

1

لوحظ في ثلاثينايت القرن الماضي ميل أنجبه العصر، عم إنجلترا وامتد فشمل أجهزة الاستخبارات جميعها في الدول الكبيرة، هو الميل إلى المنهجية والعقلانية والعمل العلمي. وكان قد أجري كشف حساب حول أجهزة الاستخبارات في الحرب العالمية الأولى، وتم تحديد وبلورة وتقويم النتائج والإخفاقات نقديا، وبدأ «نقد المناورات» يؤتي ثماره. أما النتيجة التي تمخضت عن ذلك، فكانت جلية: لم تعد الجاسوسية التقليدية مرضية، وعليها أن تتراجع. ومن الضروري أن يقوم استكشاف العدو على أسس علمية. بذلك، بدأت حقبة جديدة بالنسبة إلى الاستخبارات الأوروبية، أو أخذت تفرض نفسها تدريجياً.

ولقد تعلم المرء دروسا من نقاط ضعف أساليب الجاسوسية الموروثة، التي برزت بينها بدرجة أولى طرقها في إيصال المعلومات بما كانت تتطلبه من وقت طويل، وكثرة الإنفاق على العملاء، وكثرة أخطاء المصادر، الناجمة عن الإخفاق البشري، أو عيوب التقدير والحكم، والتزوير المقصود وإيصال أخبار وهمية إلى جانب معلومات مهمة يكون الزمن قد تخطاها عندما تصل إلى المركز. بينما كانت الاستفسارات، الضرورية في معظم هذه الحالات، تتطلب بدورها وقتا إضافيا. لئن كان اللاسلكي قد أنجز تقدما

عملاقاً، وتمكن من تخطي الزمان والمكان، فإنه غدا كذلك مصدر معلومات بالنسبة إلى الطرف الآخر أيضاً، حين كان ينجح في اختراق شيفرته وفك رسائله. غير أن الفارق الأكبر بقي ولا زال العملاء أنفسهم، أو ما سمي رجال ونساء الثقة، الذين كانوا لا يستحقون الثقة. ترى، من كان يعرف هؤلاء ويعلم بواعثهم؟. ومن كان يضمن موثوقية تقاريرهم، وماهية المعلومات التي يرسلونها؟. صحيح، أن ما كان يسمى «الجاسوسية الاجتماعية» من الدوائر الأولى، المحيطة بالأركان والحكومة، كان يقدم بعض الكشوف، لكن الثرثرة غالباً ما كانت ترجح فيها على الوقائع الجوهرية. ثم إنه لم يكن مستبعدا أبدا أن لا يتحول العملاء الناجحون والأذكياء بالذات، الذين كانت عيونهم وآذانهم في كل مكان، إلى عملاء مزدوجين يخدمون الطرف الآخر أيضاً. ثم، كم من جواسيس وعملاء ضاعوا في العدم، قبل أن يتمكنوا من إرسال أخبار !. وهل بوسع عميل ينشط في بلدان محددة أن لا يضع في حسبانه الحكم بالإعدام، وخاصة في أزمنة الحرب، إذا ما قبض عليه؟. ليس هناك إحصاءات حول نجاحات العملاء وإخفاقاتهم، ولا يوجد جهاز استخبارات واحد على استعداد للاعتراف بحجم خسائره، وما الذي أدت إليه عملياته. لذلك، نفتقر إلى أعداد ومستندات، مثلما نفتقر إلى تقديرات ذات صدقية. وللعلم، فإن واحداً من كل عميلين إما قبض عليه أو التحق بالعدو بين سنتي 1936 و1945، كما وقع بعضهم في قبضة العدو بينما كان يدخل الأرض الأجنبية. وكم من عميل غاب نهائياً في العتمة والضباب!. كلا. هذه الطريقة في جمع الأخبار ليست جديرة بأن يعتمد عليها، ولا بد من إيجاد طرق أفضل منها. وهكذا، حل التقصي بصورة متزايدة محل التجسس[1]، وصار على المرء أن

(1) هذه التأملات وجد المؤلف نفسه مشغولا بها خريف سنة 1939 أثناء خدمته كضابط أركان ثالث لدى قيادة الجيش العليا 18. إلى هذا، ثمة دراسة غير منشورة كتبها سنة 1945، عنوانها «معرفة وعلم العدو».

يجمع في السلام معارف استباقية عن الجيوش الأجنبية، خاصة تلك التي يمكن أن تكون عدواً محتملاً في الحرب. بذلك تطور علم الجيوش، وأسلحة الجو والبحر الأجنبية، وتم استخدام خبراء على درجة خاصة من التأهيل، يعرفون البلد المعني، ويتقنون اللغة، ويمتلكون أساسا راسخا من المعرفة بالنفسية الأجنبية. إن الرائد في حينه إرنست كوسترينج، المولود في روسيا، هو، على سبيل المثال، المؤسس الأصلي لشعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، التي قادها في وزارة دفاع الرايش العماد فون سيكت، فأكبت أول الأمر على مراقبة ودراسة الجيش الأحمر بطرق منهجية[1].

انبثقت الحاجة إلى جمع المعلومات عن غير طريق العملاء عن إكراهات عملية، فقد سادت مناطق الحكم الشمولي، وهي الاتحاد السوفياتي أولاً ثم ألمانيا بعد استيلاء الحزب النازي على الحكم سنة 1933، سرية صارمة، وسيطرت شرطة دولة سرية ذات حضور مطلق، جعلت ممارسة الجاسوسية التقليدية صعبة إلى أبعد حد، بل وتكاد تكون مستحيلة. لذلك لم يكن ممكناً الحصول إلا على معلومات شحيحة جدا من روسيا، كما يقول كوسترينج بصورة متكررة[2]. بدورها، وجدت الجاسوسية السوفياتية نفسها مجبرة على الانسحاب من الرايش الألماني، حيث كان عملها شديد الخطورة. عندئذ، بدأت تراقب ألمانيا من سويسرا وبلجيكا وفرنسا، بعد أن كانت تراقبها من تشيكوسلوفاكيا. بالمقابل، حصل قسم مكافحة التجسس الألماني على معلومات حول الجيش الأحمر والاتحاد السوفياتي من دول البلطيق، وخاصة من أستونيا، ومن المجر وتركيا وبلاد فارس[28]. فيما بعد، أضيفت رومانيا إلى القائمة، غير أن المعارف التي تم اكتسابها بهذه الطريقة بقيت جزئية.

(1) كرسترينج، مرجع سابق، ص 43.

(2) كوسترينج، ص 54: نشاطي العسكري في روسيا: 1931-1933.

ثمة لحظة سلبية أخرى، هي أن الجاسوس لم يكن عادة خبيرا عسكريا. ذلك أنه يوجد قانون غير مكتوب يطبق على كل حال في الغرب، يقول بعدم استخدام الضباط كعملاء، واشتغال الملحق العسكري في الجاسوسية[1]. أما الاتحاد السوفياتي فكان يبعث بالضباط ليكونوا جواسيس في البلدان الأجنبية، رغم أن غير العسكريين كانت لهم غلبة عددية في الجاسوسية السوفياتية أيضاً، وإن تلقوا فيما بعد رتبا عسكرية أو تم ترفيعهم، مكافأة لهم على خدمات ثمينة قدموها، حتى إن الكساندر رادو، الملقب بدورا، مدير البعثة السوفياتية في سويسرا، نال آخر الأمر رتبة عقيد في الجيش الأحمر، لكن هذا لم يحل دون بقائه هاويا من الناحية العسكرية، أرسل إلى موسكو بطريقة عشوائية إلى هذا الحد أو ذاك ما كان عملاؤه يبلغونه به.

انتقل السوفيات إلى الاستطلاع العلمي متأخرين بعض الشيء عن الألمان والحلفاء الغربيين. ولم يحققوا نقلتهم هذه إلا في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. إنهم شعب يحب السرية والتآمر، وسيبقى على حبه لهما، لهذا ظهر لديه عدد من المخبرين والعملاء لم يعرفه أي مكان آخر في العالم: هذه الصفة هي جزء من تقاليد الشعب وطبيعته، وقد فرضت نفسها بعد ثورة تشرين أول/أكتوبر سنة 1917، إلى أن غدت أشد سوءا وتفاقما مما كانت عليه في أي وقت سابق. وإن ديفيد داللين، أفضل عارف بروسيا السوفياتية، لعلى حق حين يقول: «لم يعرف التاريخ حكومة فاقت ثقتها بجهاز الاستخبارات السري ثقة الحكومة السوفياتية به، وعزت له أهمية أعظم من الأهمية التي أولته إياها[30]. ولم يكن هناك قط حكومة فاقتها جوعا إلى المعلومات حول البلدان الأخرى»[2]. هذا الجوع تؤكده فعليا

3 أنظر أيضا موسترينج، ص 55.

4 داللين، ديفيد: الجاسوسية السوفياتية، ص 7.

الرسائل اللاسلكية، التي نشرناها في هذا الفصل. وهي شديدة الفائدة، لأنها تبين بوضوح نواقص الجاسوسية التقليدية، التي سبق وصفها في مقطع سابق.

ما تشي به الاتصالات اللاسلكية بين موسكو وسويسرا

جاء الكساندر رادو، الشيوعي المجري القديم، سنة 1938 إلى سويسرا، فكان «عميلا صامتا»[1] أول الأمر، تخفى بصورة ممتازة في جنيف كمدير لمكتب الصحافة الدولية للخرائط، المسمى «جيوبرس»، ولم يبدأ بإرسال معلومات سرية باللاسلكي إلى موسكو إلا قبل نهاية سنة 1941، قبل فترة من اعتداء هتلر على روسيا. وكانت قد تأسست في سويسرا شبكة قوية من العملاء والمخبرين والمراسلين، وضعت تحت تصرف «دورا»، الذي أرسل آلاف الرسائل اللاسلكية خلال السنتين 1941 و1943، قبل أن يضطر للاختباء وتنكشف الشبكة.

خلال الحرب العالمية الثانية، كانت سويسرا المحايدة، شأنها في ذلك شأن تركيا والبرتغال، أرضاً ملائمة بصورة خاصة للجاسوسية بأسلوب «8/ 15»، إن كان لنا أن نسمح لأنفسنا باستخدام تعبيرات كهذه[31]. وقد كان في سائر المدن الكبيرة سوق نظامية لتجارة المعلومات السرية ـ أو التي ظن المرء أنها سرية ـ اقتصرت سلعها غالباً على أخبار أخذت من الصحافة السويسرية الحسنة الاطلاع وأعيدت صياغتها. لذلك كانت الأخبار التي بعثها دورا إلى موسكو شحيحة أول الأمر، ومع أنه أرسل فيما بعد أنباء هامة، فإن عدداً كبيراً من «المعلومات السرية» كان مجرد عموميات، يتضح ذلك

(1) ساندور رادو: الاسم السري دورا، ترجمه عن الهنجارية جوزيف فاركاس، شتوتجارت، 1972.

من مستندات الرسائل اللاسلكية المتوفرة، التي التقطها قسم التنصت اللاسلكي الألماني وفك رموزها[1].

للتدليل على صحة ما أقول، جمعت رسائل لاسلكية فكت شيفراتها، تتعلق بإيطاليا، جارة سويسرا، حيث لم يكن الاستطلاع وجمع المعلومات والأخبار صعبين. تبين هذه الرسائل بالذات نواقص معظم عملاء الجاسوسية، وعيوب مصادرهم المزعومة. يفسر هذا، لماذا كانت موسكو تكثر من استفساراتها، وتحذيراتها، وتكليفاتها، التي لا نملك، لأسفنا الشديد، ردود دورا على معظمها. لذلك، لا نعتبر هذه الرسائل اللاسلكية كاملة، وقد ألحقنا بكل واحدة منها تعليقاً قصيراً كتبه ضابط أركان سابق لدى دائرة «الجنرال الألماني المفوض لدى المقر الرئيس للقوات المسلحة الإيطالية»، يجعل فهمها أفضل. تقول الرسائل اللاسلكية، التي تنشر هنا لأول مرة، ما نصه:

21/ 9/ 1941

إلى المدير

أخبرنا الملحق العسكري السويسري، الذي وصل إلى هنا، عن توتر متعاظم بين الجيش الإيطالي والحزب الفاشي.

دورا

تعليق: هذا ما كان يعرفه كل إنسان (هذا ما كانت تعلنه زقزقة العصافير من فوق الأسطح).

21/ 10/ 1941

(1) في حوزة المؤلف نسخ من النصوص الأصلية.

إلى المدير

من سالتر

يركز الألمان قوات بين ميونيخ وبيرن خشية انقلاب محتمل في إيطاليا. يواصل الإيطاليون تحصين حدودهم الشمالية.

تعليق: المعلومات حول تمركز قوات ألمانية في المكان المسمى والزمن المعلن خاطئة، أو هي إشاعة هادفة نشرتها أجهزة الاستخبارات الخارجية.

1941 /12 /6

إلى المدير

تقول دوائر ديبلوماسية صينيه أن 400000 (!) ألماني يحتلون جميع النقاط الاستراتيجية في إيطاليا لضمان عدم قيام إيطاليا بعقد سلام منفرد. الأجواء في إيطاليا معادية للألمان بصورة متزايدة، ومعادية لشيانو (وزير خارجية إيطاليا الفاشية ـ المعرِّب) بصورة خاصة.

دورا

تعليق: الأرقام هراء.

قبل هذا، كانت هذه المعلومات وسواها من معلومات تلك الفترة، التي لا نمتلكها، قد بدت للمركز في موسكو عائمة وقليلة الصدقية. لذلك بعثت باستفسارات كالتالية (بعد سنة تقريباً).

1942 /11 /22

إلى دورا

نرجو بإلحاح التأكد من:

1) عدد الفرق التي أدخلت من ألمانيا إلى مناطق فرنسا التي لم تكن محتلة؟. أرقام هذه الفرق وأماكن تمركزها؟.

2) هل أرسلت ألمانيا وحدات مقاتلة إلى إيطاليا والبلقان؟. كم عددها وما هي أرقام القوات المرسلة؟.

3) كم عدد القوات التي أرسلتها ألمانيا إلى أفريقيا؟. أرقام هذه الوحدات؟.

4) انتبهوا جيدا إلى الوضع في جنوب أوروبا، وأخبرونا بصورة دورية عنه.

المدير

تعليق: حدث الدخول إلى الأراضي الفرنسية التي لم تكن قد احتلت بعد يوم 11/ 11/ 1942. بعد أحد عشر يوما من ذلك، كانت موسكو تجهل حجم تحركات القوات الألمانية، رغم شبكة الجاسوسية المتشعبة جدا، التابعة لها. وعلى كل حال، نحن هنا إزاء مسألة رقابية، لأن المدير بعث بالرسالة اللاسلكية الآتية:

13/ 12/ 1942

إلى دورا

راقبوا فوراً بواسطة مجموعة تايلور[1] المعلومات المهمة من جراو حول وصول محتمل لعشر فرق من قوات جيش فرنسا بقيادة الجنرال فون

(1) حسب تقرير كشف الحساب، الذي وضعه هانس رودلف كورتس: سويسرا كمركز أخبار، فراونفيلد وشتوتجارت 1972، كان تايلور = شنايدر الوسيط الذي ينقل المعلومات بين روسلر (لوسي) و«سيسي «=دوبندورفر، الذي كان يوصلها من جانبه إلى رادو.

فيتسليبن. رئيس أركان الجيش مايلاند. المدير

تعليق: كان المارشال فون فيتسليبن قد استبدل في شباط/فبراير من سنة 1942 كآمر أعلى للغرب، وحل مكانه المارشال رونشتيدت. وكان الآمر الأعلى قد أرسل وحدات كبيرة إلى إيطاليا، لكن عدد الفرق (10 فرق) كان مبالغاً به كثيراً.

1942/12/14

إلى دورا

1) ماذا كان جواب بوخارست على البيت الملكي الإيطالي، وماذا كان في رأيكم سبب السؤال؟.

2) كيف هو مزاج الشعب والحكومة والفاشيين وموسوليني والعسكريين في إيطاليا؟. ما عدد القوات الألمانية؟. المدير

تعليق: حول 1) يتعلق الأمر هنا بشائعات راجت آنذاك في الأوساط الديبلوماسية، من غير الممكن التأكد من صحتها.

حول 2): من الواضح أن المقر السويسري كان يفتقر إلى الاتصالات الضرورية، التي كان من شأنها أن تمكنه من القيام بتقويم دقيق للوضع في إيطاليا نهاية كانون الأول/ديسمبر من سنة 1942، أي قبل كارثة ستالينغراد.

أما سؤال يوم 1942/12/22 عن عدد القوات الألمانية فهو يتكرر بإلحاح يوم

1942/12/28

كم عدد القوات الألمانية وأي منها يوجد في إيطاليا ؟

المدير

ليس الجواب معروفا.

1943 /1 /8

إلى دورا

من يحضر للحكومة الجديدة في إيطاليا، ومن سيشارك فيها؟. وهل تشكل في إيطاليا وحدات جديدة لإرسالها إلى الجبهة الشرقية؟. مواليد أي أعوام يساقون إلى الخدمة في ألمانيا؟. كم عدد من بلغوا سن الخامسة والعشرين؟. المدير

تعليق: لم يكن باستطاعة أحد آنذاك الإجابة على السؤال الأول، إلا عميل يحظى بثقة الملك الإيطالي أو بثقة المارشال باداجليو. أما الجواب على السؤال الثاني فقد جاء غائما جدا. بينما كان يمكن تلقي جواب أفضل على السؤال الثالث من أسرى الحرب الألمان، لذا نعتبره سؤالا رقابيا.

أخيراً تفقد موسكو صبرها وتبرق:

1943 /1 /12

إلى دورا

ثمة شك في المعطيات التي تقدر عدد الفرق الألمانية في إيطاليا ب25 أو 30 فرقة. وليس مفهوما من أين تأتي هذه الفرق. نرجوكم فحص جميع مصادركم وموافاتنا بمعلومات أكيدة حول عدد الفرق الألمانية في إيطاليا، ما هي وأين تتمركز وعدد وحداتها. ألا يستطيع باكبو[1] الحصول على معلومات من الاستخبارات السويسرية، التي يجب أن يكون لديها الخبر اليقين؟. المدير

(1) حسب تقرير كورتس، كان باكبو، قائد مجموعة من مدبري الأخبار الغربيين، مورد الأخبار الأهم بالنسبة إلى رادو،

تعليق: يتكرر هذا السؤال في البرقيات الملتقطة للمرة الثالثة خلال قرابة فصل. أما ما كان دورا قد أبرق به إلى موسكو، فلم يكن معلومات استخبارية بل شائعات، في حين أن مطالبة دورا بالحصول على مستندات من الصحافي باكبو / بونتر من وكالة الأنباء السويسرية، تعد انتهاكاً لحياد سويسرا، وهي مطالبة طائشة، لأنه كان من شأن كشفها إعطاء ألمانيا ذريعة ضد سويسرا واستخباراتها.

تتجدد المطالبة بعد يومين:

1943 /1 /14

إلى دورا

على روت أن يقول من أين أرسلت ألمانيا ثلاثين فرقة إلى إيطاليا. ما وضع الاحتياطي في ألمانيا؟. المدير

تعليق: حدث هذا قبل قليل من استسلام الجيش السادس في ستالينغراد. لذا، يعتبر السؤال حول الاحتياطي الميداني مهم جدا بالنسبة إلى القيادة السوفياتية.

لم تتلق موسكو رسالة لاسلكية تشير إلى وصول رد مرض على سؤالها. ولم تكن لديها صورة صحيحة عن الاحتياطي الألماني، لأن وصول فرق الـ إس إس من الغرب إلى مجموعة جيش الجنوب (فون مانشتاين) في شباط/ فبراير كان مفاجئا بالنسبة لها.

بالمقابل، كانت المعلومة التالية صحيحة، لأن مصدرها كان متعاطفاً مع الشيوعية يعمل في مصنع أسلحة أورليكون:

1943 /1 /27

إلى المدير

من الأخ !

أ) زود مصنع أسلحة أورليكون الألمان سنة 1942 بمدافع من عيار 20 مليمتراً للدفاع الأرضي عددها 1185، وضد السفن عددها 1004، وضد الطائرات عددها 1230، وزودهم ب 1600 سبطانة احتياطية، و 8550 حاوية كبيرة، و700 متوسطة و8600 صغيرة.

ب) تم طلب 1000 مدفع مضاد للسفن، 10000 حاوية، 8 ملايين قنبلة من عيار 20 مليمتراً، ملايين كثيرة من صواعق قنابل 75 مليمتراً. دورا

لكن الرسالة اللاسلكية التالية تعد نموذجية في ما يتعلق بافتقار تقارير عملاء كثيرة إلى مضمون:

1943 /4 /3

إلى المدير

من فيرتر (هذه رسالة خرجت من القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية مباشرة)

الهجمات التي يشنها فون أرنيم[1] منذ الرابع من آذار/مارس يراد بها الاستيلاء على شمال تونس بأكمله.

تعليق: ذلك كان أمراً بديهياً. لم تكن موسكو بحاجة إلى عميل كي تحصل على «معلومة» كهذه.

يوجد ما يماثل هذه المراسلات اللاسلكية في مجالات الحرب

(1) اللواء فون أرنيم، القائد الأعلى للجيش المدرع الخامس في تونس.

الأخرى، فهي توضح التناقض بين ما يستطيع العملاء، وما لا يستطيعون الحصول عليه. وتؤكد مرة أخرى أن مراكز الأخبار، التي تعمل على رسم صورة عامة صحيحة حول القدرة الإجمالية لقوى العدو، هي التي تقوم بالعمل الأكثر أهمية في الاستخبارات السرية، وليس الجاسوس أو العميل، مهما اختلق التلفيق من إثارة حولهما أو تم تضخيم أنصاف الحقائق عنهما. هذه المراكز هي الجهة التي يرتبط نجاح العمل بها، فهي تحتاج، إذن، إلى معلومات دقيقة وموضوعية وتفاصيل صحيحة، خاصة حول وضع الاحتياطي الميداني.

هكذا تطور في غرب أوروبا تقسيم ثنائي لأجهزة الاستخبارات، اشترطته وظائفها المختلفة، تجسد في تدبير الأخبار وجمعها وتقويمها، علماً بأن للمهمة الأخيرة مهمة رئيس هي: أن تكون الدماغ الحقيقي ـ او بنك المعلومات، كما نقول اليوم ـ لجهاز الاستخبارات. وقد كان رأس وضمير هذا القسم ـ أول الأمر وبالدرجة الأولى ـ في ألمانيا الشعبة الثالثة من أركان الجيش العامة، التي حملت اسم شعبة «الجيوش الأجنبية»، وقسمت فيما بعد إلى الشعبة الثالثة والثانية عشرة، المسماة «الجيوش الأجنبية غرب» و«الجيوش الأجنبية شرق». وهي شعب كان هناك ما يماثلها لدى فروع القوات المسلحة هي شعبة «أسلحة الجو الأجنبية» و«البحريات الأجنبية». وقد تم إخبار الرأي العام حول القسمات العامة لعمل شعبتي «الجيوش الأجنبية غرب» و«الجيوش الأجنبية شرق»، بعد أن نشر رئيساها اللواء ليس ثم اللواء جيهلن مذكراتهما. صحيح أنهما لم يبوحا بكل ما في جعبتهما من أسرار، لكن مذكراتهما تسمح بإلقاء نظرة صائبة على عملهما. كانت تعليمات ومراسلات الخدمة الرسمية تسمي المهام التي تقومان بها في الحرب وكالة أنباء العدو، بينما سميت «المكافحة» وكالة المراسلات السرية. إذا ما نظرنا إليها بدقة، وجدنا أن وكالة المراسلات السرية كانت مجرد

مساعد ومعاون لوكالة أنباء العدو. لذا، من التضليل اعتبار «المكافحة» مساوية ببساطة لجهاز الاستخبارات الألماني، وقد جاء الوقت لنبين هنا التصور الصحيح، بعد مرور فترة تربو على جيل، منذ انتهت الحرب العالمية الثانية.

obeikandl.com

الفصل الرابع

انتقال نقاط الثقل

تعتبر الاستخبارات، في جميع الأحوال، ضرباً من الجاسوسية، لكنها جاسوسية بصورة جزئية ومشروطة. ولديها مصادر معلومات كثيرة، وستكتشف دوماً مصادر جديدة، ما دامت الرؤوس الذكية والمبتكرة تعمل في مختبراتها، بينها ما يسمى المادة المفتوحة، من أدب مختص وجرائد ومجلات وكتب، التي تبين أنها تنقل إلينا كما من المعارف أكبر مما نحصل عليه بواسطة مخبرين مرتفعي الأجر، وأننا نحتاج فقط إلى دراستها بعناية، ومعرفة كيفية تقويم إشاراتها ومعطياتها الجزئية. أذكر هنا أن مولتكه القديم، هذا الرأس العلمي بامتياز بين جنود القرن التاسع عشر القياديين، حسب سنة 1870 تقدم الجيش الفرنسي على الجبهة الشرقية بمعونة دليل سفر عادي، وأن «الجيوش الأجنبية غرب» في شعبة الأركان العامة في القيادة العليا للجيش الألماني توصلت إلى شيء مماثل بعد 69 عاما[1]. وأن تحقيق ذلك لم يكن بحاجة إلى «رجال ثقة» و«جواسيس وعملاء»[32].

ثمة، بطبيعة الحال، فارق كبير بين الحرب والسلام، في ما يخص حصول الاستخبارات على المعلومات. إن ما هو ممكن في السلام، كالانتقال الحر من بلد إلى آخر، يصير مقيداً أو محظوراً في الحرب، حيث تكون اليقظة أكبر، والرقابة أشد، وتنشأ جبهات يصعب اختراقها، وتهدد

(1) انظر: ليس، ص 96.

بعض البلدان الجاسوس بالموت، بما في ذلك سويسرا ذاتها، التي أصدرت 33 حكماً بالموت نفذت 17 منها خلال الحرب. تتدفق في السلام منابع المعلومات المفتوحة بثراء أعظم، بينما تشح أو تنضب تماماً في الحرب، مع أن الاستخبارات اكتسبت خلال الحرب العالمية قدرات جديدة، ترجع إلى وجود متعاطفين كثر مع النظم المعادية، عملوا ضد بلدانهم لأسباب أيديولوجية ـ أو خانوها بسبب افتقارهم إلى الحذر. وقد أفاد الرايش الثالث حتى سنة 1942 من هذه الظاهرة أكثر مما أفادت موسكو، وهذا أمر ليس معروفاً بعد على حقيقته، حتى إنه لم يسبق لوكالة أنباء عدو أن عرفت عن الجانب المقابل ما كانت تعرفه «الجيوش الأجنبية شرق» إبان الحملة على روسيا[33]. أخيراً، كسب الاستطلاع والتنصت اللاسلكي خلال الحرب أعداداً كبيرة من «المصادر الأكيدة»، سنتعرف إليها بالتفصيل فيما بعد. ذلك أحدث انتقالا في نقاط ثقل العمل الاستخباري.

مهام وكالة أنباء العدو

بعد حملة بولونيا سنة 1939، والنرويج والغرب سنة 1940، انكبت قيادة الجيش العليا مطلع سنة 1941 على إجراء فحص نقدي طال تجارب جمع المعلومات عن العدو وتقويمها، وصاغ توجيهات خدمة اتفقت مع النتائج التي استخلصتها. أقر رئيس أركان الجيش في حينه، العماد هالدر، في الأول من آذار/مارس سنة 1941 مشروع لائحة سرية للجيش، حملت اسم وكالة أنباء العدو، فغدت ملزمة لضباط شعبة الأركان الثالثة في القيادة، بدءاً من شعبة «الجيوش الأجنبية» في قيادة الجيش العليا إلى المختصين بالعدو في أركان الفرق. وقد استعين في وضعها بممارسي الخدمة الرئيسيين. لذلك، أثبت المشروع جدارته، ولم تنشأ خلال الحرب حاجة إلى استبداله بصيغة جديدة ونهائية.

لن أورد هنا تفاصيل فصول وأرقام اللائحة، فهي لا تخص غير الخبير. مع ذلك، تستحق بعض أجزائها اهتماماً عاما، وخاصة منها جزء المقدمة الأول، الذي يبين مهمة الوكالة. تقول الفقرة المعنية: «لوكالة أنباء العدو أهمية كبيرة بالنسبة إلى القيادة، فهي، تقدم، انطلاقا من مهامها الخاصة، المستندات الأكثر أهمية، الضرورية لتقويم وضع العدو ولاتخاذ القرارات، وتمد قادة القوات بصورة واضحة قدر المستطاع حول توزيع قوى ونوايا (وإمكانات)، وأساليب قتال العدو وقيمته العسكرية، فتسهل قيام القوات الصديقة بمكافحته بفاعلية». هذا ما يقوله البند الأول من لائحة الوكالة. أما أن الاستخبارات العسكرية الروسية عملت بطريقة مشابهة، فيتضح من استفسارات موسكو، التي استشهدنا بها في مقطع سابق. يتأكد هذا التطابق أيضاً من خلال المهام، التي كلف المدير «دورا» بها، الأمر الذي لم يكن وليد المصادفة، فقد زارت في نهاية العشرينات شلة من الضباط السوفيات أكاديمية الحرب الألمانية، رغم أنها كانت محاطة بالسرية آنذاك، ودأبت على متابعة أعمال الألمان المنهجية. وفي جميع الأحوال، تدل اللائحة على وجود حس متزايد بالطريقة والنزعة النقدية العلميتين، وتحذر حتى في مبادئها من الوهم الذي يقول بقدرة المرء بلوغ وضوح تام حول قوة العدو ونواياه. أما ضربات الحظ (كالرسالة اللاسلكية، التي بعث بها القائدان الروسيان حول نواياهما قبل معركة تاننبرج سنة 1914) فليس بالإمكان أخذها في الحسبان إلا في حالات استثنائية. وعلى الوكالة تحرير نفسها من الآراء المسبقة، وفحص ما تحصل عليه من معلومات بطريقة نقدية، واستغلال سائر الإمكانات من أجل كسب معارف جديدة. من الأهمية بمكان، أيضاً، معرفة الصفات القومية وبعض أنماط السلوك المحددة للجيوش الأجنبية، ومن المفيد كذلك تقصي طبائع قادة الجيوش الأجانب وسماتها (لكل واحد منهم خط مختلف كما يقول كلاوزيفتز). وتضيف

اللائحة أن على الوكالة فرض متطلبات عالية على ضباطها، الذين يحتاجون عادة إلى تأهيل وتدريب خاصين في الأركان العامة، لكن حاجتهم تبقى أكبر إلى أفكار خاصة بهم. وعليهم أن يعرفوا عن يقين أسس القيادة الخاصة بهم، وتلك التي لدى الأجانب، ويعرفوا بدقة الجيش الذي عليهم التعامل معه. عندئذ فقط يكونون في وضع يستطيعون معه تفسير ما يصلهم من أخبار ومعلومات بصورة صحيحة، ووضعه في السياق الملائم، وتحديد مهام ملائمة تتعلق بمتابعة استطلاع العدو. يقول المطلب الموجه إلى معالجي شؤون العدو في سائر صعد التراتب العسكري بلهجة قاطعة: «يتطلب الاستطلاع والتقويم عملاً مضبوطاً متواصلاً ومضنياً، يجمّع في أقصر وقت صورة متماسكة عن تنظيم العدو ونواياه، يستمدها من أخبار تفصيلية كثيرة، متناقضة جزئياً، توجد غالباً في أماكن خفية ولا تقبل التفسير بغير مشقة في معظم الأحيان». يلفت النظر في الرسائل اللاسلكية الأصلية، التي أوردناها أعلاه، كونها تحيل إلى مصدر واحد بصورة دائمة على وجه التقريب. هذا المبدأ ينطبق على سائر أجهزة الاستخبارات، ويتم التقيد به دون قيد أو شرط، فالمرء يريد أن يعرف مصدر معلومات معينة، ويعلم أن ورود إسم ما قد يعني ختماً يشهد على الجودة، حتى إن تعلق الأمر «باسم حرب» (أنظر الاسم السري باكبو في التكليف الأخير الذي طلبته موسكو). أما الاستفسارات والأسئلة الرقابية، الضرورية لتأكيد الأخبار، فهي هامة، ولا يمكن الاستغناء عنها بدورها في الغالب.

يقول نص اللائحة الحرفي أيضاً إن أفضل خبر يصير بلا معنى، إذا وصل متأخراً جداً إلى من يتلقونه. تكمن مهمة الوكالة الرئيسة، كما يتضح على كل حال من رسائل اللاسلكي المتبادلة بين سويسرا وموسكو، في استطلاع قوة وأماكن تواجد وتنظيم احتياطي العدو الميداني: فإن عرفها المرء، جعلت الخريطة حول وضع العدو نواياه التالية واضحة أغلب

الأحيان، مثلما تقدم تحركات نقل القوات بالسكك الحديد والطرق معلومات كثيرة حول خططه. لذلك، يحتل الاستطلاع الجوي أهمية خاصة، مع أن المناخ يحول غالباً دون القيام به. وكما هو الحال في بقية المجالات، من الضروري التمييز هنا أيضاً بين استطلاع عملياتي بعيد، واستطلاع تكتيكي وثالث قتالي.

ترسم اللائحة حدوداً واضحة بين مهام وكالة أنباء العدو ومهام وكالة المراسلات السرية، أي شعبة «المكافحة» في القيادة العليا للقوات المسلحة. وهي تعترف للأخيرة بكونها أحد أهم مصادر الأخبار في السلام. وتضيف أن نشاطها يصير «في الحرب» أكثر صعوبة بسبب تدابير العدو المضادة، وسقوط بعض العملاء، ومراقبة أو إغلاق الحدود المحايدة»، لذا، يتراجع عند نشوب الحرب بصورة خاصة عدد المعلومات، التي تصل عن طريقها. من جهة أخرى، تكون وكالة المراسلات السرية غالباً الوسيلة الوحيدة لاستطلاع مناطق العدو الخلفية، والوصول إلى عاصمته وإقامة صلات مع شعبه، حيث تشير التجربة إلى وجود مصادر معلومات وأخبار مهمة بصورة خاصة. من جهة أخرى، تؤكد اللائحة أنه «لا يمكن تحاشي ورود أخبار عديمة القيمة وغامضة، تختلط بأخبار الوكالة السرية»، ولا من معين ضد هذا غير التأهيل الجدي قبل كل شيء للمكلفين بالعمل في الوكالة، الذين يقودون العملاء ويحددون مهامهم. ثمة إنجازات ثلاثة لوكالة أنباء العدو تستحق أن تؤكد، صارت جميعها ذات أهمية مبدئية بالنسبة لقيادة الحرب على الجملة. ثمة، من دون شك، ظروف طيبة جداً يجب توفرها، حتى يكون العملاء في وضع يمكنهم من الحصول على مستندات نوعية القيمة، تتعلق بمعلومات عن:

ـ الرسائل اللاسلكية لوزارة الحرب الفرنسية من بداية الحرب سنة

1939 وحتى 10/ 5/ 1940.

- القوة الكاملة للجيش الأحمر، وأخيراً.

- خطة تسليح الولايات المتحدة الأميركية.

هذه إنجازات استطلاعية حققتها شعب «الجيوش الأجنبية» في القيادة العامة للجيش، تنصب الأولى منها على إنجاز حققه «الغرب»، بينما حقق «الشرق» الإنجازين الآخرين. أما التقارير حول هذه الإنجازات فيمكن أخذها من مذكرات رؤساء هذه الشعب: العقيد ضابط شعبة الأركان الثالثة ليس رئيس شعبة «الغرب» والعقيد ضابط شعبة الأركان الثالثة جيهلن رئيس شعبة «الشرق»، فالأمر يتعلق إذن بمعلومات حربية تاريخية من أول يد.

يقول ليس: سطعت الأضواء في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1939 في استطلاع اللاسلكي، ثم ما لبثت أن وصلت إلى فرانكفورت رسائل برقية مشفرة، كنا قد وعدنا بها، تقول إنه تم الاستماع تدريجيا إلى الاتصالات اللاسلكية الموجهة من وزارة الحرب الفرنسية، الكائنة في شارع سان دومينيك، إلى مجموعات الجيوش، والجيوش، والسلطات الوطنية، وشمال أفريقيا وسوريا. ومع أن المفتاح الفرنسي كان يتغير مرة كل أربعة أسابيع، فإنه كانت تتم قراءة الرسائل البرقية بعد أيام قليلة من تغييره، باستثناء المفتاح، الذي أدخل يوم العاشر من أيار/مايو سنة 1940، فإنه لم يمكن كسره مطلقاً. لكن هذا لم يكن له أي تأثير يذكر، بفضل سرعة جريان الهجوم الألماني». أكدت الرسائل اللاسلكية تنظيم مجموعة الجيوش الفرنسية الثانية، وكذلك الجيش الثامن في منطقة الراين الأعلى. فيما بعد أمكن تأكيد وجود شعبة الجيش (أ)، وفي مطلع السنة تبين قدوم جيوش فرنسية أخرى. إلى ذلك، قدمت الرسائل اللاسلكية معلومات ثمينة، بينها تأسيس مجموعات قوات جديدة. هكذا تكاملت بمرور الوقت صورة إجمالية

من «مصدر وثيق»، وتمكنت وكالة المراسلات السرية، التي انتعشت تدريجياً من جديد، الشروع باستطلاع لاحق طال تفاصيل كثيرة، مكنت الألمان من الحصول على صورة دقيقة للعدو، قبل بدء الهجوم الكبير في الغرب يوم 10 أيار/ مايو 1940.

من الضروري أن تستأثر باهتمام أكبر عملية «الجيوش الأجنبية شرق»، التي استطلعت القوة العددية للجيش الأحمر سنة 1942، ونفذت كلها بفضل الجهد العقلي وحده. كان الألمان يتخبطون في الظلمة أول الأمر، للأسباب المعلومة إياها، وحتى خبير روسيا الجنرال كوسترينج، الذي كان في حينه ملحقا عسكرياً في موسكو، لم يستطع تقديم أي مساعدة، مولتكه (رئيس أركان الجيش البروسي في نهاية القرن التاسع عشر، الذي هزم النمسا وبافاريا وفرنسا ـ المعرب) العجوز يقول: ليست الاستراتيجية إلا منظومة أعمال مساعدة. لقد كان على وكالة أنباء العدو أن تعرف كيف تساعد نفسها، حين تفشل وسائل الاستطلاع الأخرى. وبما أنها كانت تمتلك سنة 1942 أساساً وطيداً تستطيع الانطلاق منه، هو نتائج التعداد السكاني السوفياتي سنة 1939، فقد كان عليها أن تفكر بشيء خارق، هو التقويم المنهجي للإحصاء السكاني في الاتحاد السوفياتي، مع استبعاد الأموات وقتلى الحرب منذ سنة 1939. كرس جيهلن في مذكراته صفحات كثيرة لهذه العملية المعقدة[1]، التي انتهت مطلع سنة 1942، وجعلت الوكالة تقدر قوة الجيش السوفياتي العددية بستة إلى ستة ملايين ونصف مليون رجل، وهو تقدير أكدته معلومات جاءت من مصدر أكيد هو الإذاعة السوفياتية، التي نقلت إعلان لستالين في نهاية آذار/ مارس من سنة 1942 يقول: «. . . وعلي

(1) جيهلن، ص32 وما يليها.

تلبية حاجات جيش من ستة ملايين مقاتل». كما أكد ديبلوماسي أجنبي الرقم ذاته، فصار لدينا هنا أيضاً الشاهدان الشهيران، الضروريان لإعلان الحقيقة.

كانت معرفة الخطط الإجمالية لتسلح الولايات المتحدة أسهل بكثير من تقدير قوة الجيش السوفياتي العددية. فقد أمكن إعادة بنائه بفضل تقويم متأن للصحافة الأمريكية، وتم تقديمه مطلع سنة 1942 إلى القيادة العليا الألمانية لأخذ العلم به[34]. يروي جيهلن قصة طريفة في هذا السياق، تبين الإلفة التي سادت بين زملاء العمل الاستخباري، عندما كانوا يلتقون من جديد في السلام[1]. «سنة 1960، روى لي الجنرال ويديماير، الذي درس في الأكاديمية الحربية الألمانية بين سنتي 1936 و1938، وكان واحداً من أكثر الشخصيات القيادية الأميركية موهبة من الناحية العملياتية خلال الحرب العالمية الثانية، أنه لم يتضح في أي وقت بأي طريقة وصلت هذه الورقة الشديدة السرية إلى الصحافة. كان الجنرال آنذاك ضابط الأركان الأول في شعبة العمليات الأميركية، وعاش أثناء هذه القضية أكثر ساعات حياته إثارة، لكنه خرج من التحقيقات من دون أن توجه إليه أي تهمة. وقد وصف لي القصة... بوضوح شديد: «لقد حفظ الجنود سرهم. لكن مجريات البحث أدت إلى الاشتباه بأن «الموقع الرخو» كان موجوداً في الدائرة المقربة من الرئيس روزفلت».

وهتلر؟. كيف تصرف هتلر تجاه خطط التسلح الأميركية، التي انكشفت وغدت معروفة؟. لقد تصرف بالطريقة التي اعتمدها في الحالات الأخرى أيضاً: فقد اتسم رد فعله بالأحكام المسبقة والآراء الجاهزة، وأعلن خلال أحاديث المائدة[2] أن صناعة السلاح الأميركية ليست في وضع يمكنها

(1) المرجع ذاته، ص 22.

(2) هنري بيكر: أحاديث هتلر على المائدة في مقر الفوهرر الرئيس، شتوتجارت 1977.

من الإسهام في تعويض البريطانيين عن الخسائر في سفنهم، وأن الملايين الثلاثة والعشرين من العاطلين عن العمل (وعديمي الموارد) في أميركا هم مصدر مصاعب دائمة بالنسبة لحكوماتها ولجهدها التسلحي، بالنظر إلى أنهم يعتبرون أنفسهم بروليتاريا تجسد طبقة جديدة. وذكر أنه نجح في إعادة دمج الملايين السبعة، الذين كانوا عاطلين عن العمل عند توليه السلطة، في سيرورة الإنتاج، لأنه نقل الشعب الألماني إلى وضع مثالي إلى أبعد حد بفضل الحركة الاشتراكية القومية. وقدر أن أميركا لن تنجح في إزالة البطالة عبر عملية تسلح واسعة النطاق. وبالمناسبة، فقد بالغ مبالغة دعائية في عدد العاطلين عن العمل من الأميركيين والألمان.

بالمقابل، كان «حملة الأسرار» يبذلون الجهد من أجل الوصول إلى معارف موضوعية. وقد حققوا نجاحاً كبيراً في عملهم، على هذا وذاك الجانب من المرتفع.

تنظيم الاستخبارات الألمانية

لم تكن الاستخبارات الألمانية ككل منظمة بالطريقة الهادفة التي كانت عليها الاستخبارات الإنجليزية والفرنسية. وكانت تفتقر في ظل هتلر إلى رأس موحد قبل كل شيء، وتتكون من منظمات ثلاث يستطيع «الفوهرر» التلاعب بها الواحدة ضد الأخرى، ساعة يشاء. وهو ما فعله آنذاك وفيما بعد. كان هناك بادئ ذي بدء شعبة مكافحة التجسس، أي مكتب الخارج / المكافحة في قيادة القوات المسلحة العليا، التي اكتسبت تحت قيادة الأميرال كاناريس سمعة أسطورية، شاعت في الداخل أكثر من الخارج، مع أنها كانت قد غدت موضع خلاف. مهما يكن من أمر، لا يجوز اعتبار شعبة «المكافحة» كل الاستخبارات الألمانية: فقد كانت إلى جانب وظيفتها المهمة: مكافحة التجسس في المجال العسكري، مكلفة بجمع معلومات غير

شرعية، أي عبر المراسلات السرية، في لغة الجيش. لكن التقويم الأصلي للمعلومات، التي كانت تحصل عليها، وكذلك الاستطلاع البرقي والمصادر الأخرى الشديدة التنوع، الظاهرة منها والخفية، كان يتم في شعب «الجيوش الأجنبية»، التابعة لقيادة الجيش العليا، أو في الشعب المماثلة الملحقة بفروع القوات المسلحة، وهي «البحريات الأجنبية» و«أسلحة الجو الأجنبية»، حيث كانت نقطة ثقل الاستخبارات السرية في الحرب. أخيراً، كان هناك مكتب أمن الرايش الرئيس، والاستخبارات الخارجية، التي أدمج فيها بعد إعفاء كاناريس من منصبه سنة 1944 شعبة الحصول على الأخبار العسكرية، وشعبة المكافحة الأولى، وسميت «المكتب العسكري». تباينت طرق عمل ومناهج هذه الفروع الثلاثة من شجرة المعرفة الاستخبارية في ألمانيا الهتلرية، وأثبتت مناهج وطرق عمل «الجيوش الأجنبية شرق» أنها الأكثر نجاحاً، حتى بعد نهاية الحرب سنة 1945. وكان السبب في تعيين رئيسها اللواء راينهارد جيهلن أول رئيس لاستخبارات جمهورية ألمانيا الاتحادية ـ يا لها من سيرة وظيفية مثيرة للاهتمام ـ !.

ماذا تعني وكالة أنباء العدو؟

ماذا تعني وكالة أنباء العدو؟. ميزت لائحة الخدمة في الجيش خلال الحقبة المذكورة بين الوكالة ووكالة المراسلات السرية. وكلفت الأولى بوضع صورة كاملة ودقيقة ومعللة علمياً عن العدو، بينما أسندت إلى الثانية مهمة جمع المعلومات الضرورية لذلك بالطرق السرية. هكذا، كمن الفارق بينهما في اختلاف طرق عملهما ومناهجه. وهو ما يتضح من العملية، أو بالأحرى من التسلسل الذي كان يتبعه ضباط الأركان العامة المختصين، عند قراءة تقاريرهم حول وضع العدو أمام الدوائر القيادية العليا.

كانت نتائج الاستطلاع الجوي أول ما يتم الإعلان عنه عادة، سواء

تعلق الأمر بتحركات العدو على الجبهة أم في مناطقه الخلفية. وكانت النتائج تستكمل بنتائج المراقبة الأرضية. ثم يأتي دور الاستطلاع البرقي، بمعلوماته العملياتية والتكتيكية. ثم كانت تقدم تقارير إجمالية تستند على ما يتم الاستيلاء عليه من وثائق معادية أو اعترافات الأسرى، التي كانت تنتزع لغرض محدد. وأخيرا، كانت تأتي المعلومات، التي يقدمها العملاء والفارون من صفوف العدو. وقد سارت الأمور على هذا النحو ذاته في مركز الجبهة الشرقية الألماني، وكذلك لدى «الجيوش الأجنبية شرق»، حيث كانت ترسل إلى هناك بصورة يومية تلك الأنباء، التي يتم اختيارها بعناية من قبل ضابط شعبة الأركان الثالثة، بينما كانت الأنباء الهامة ترسل بصورة فورية.

هذا النظام كان قابلاً للتطبيق في الحرب دون غيرها، لأنه كان يشترط وجود «احتكاك مع العدو»، وعلاقة قتالية مع الخصم. لكنه كان قد أعد قبل الحرب، في أوقات التوتر، حيث كان يتم أيضاً تنفيذ الاستطلاع الجوي على أعلى ارتفاع، وكذلك الاستطلاع البرقي. لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى «مكتب الأبحاث» التابع لهيرمان جورينج، الذي عرف كيف يخترق أحاديث الديبلوماسيين، وإلى ما كان يأتي من معلومات سرية بواسطة الديبلوماسيين المحايدين. لا داعي للقول: إن وزن هذا كله كان يفوق وزن التجسس التقليدي بواسطة «الرجال الثقة»، إلا عندما كان هؤلاء على اتصال مع أعلى الجهات الاجنبية. وفي النهاية، كان تبادل المعلومات الموثوقة بين الممثليات الديبلوماسية في البلدان الأجنبية يجلب معلومات لا نعرف إلى يومنا هذا غير القليل جداً عنها.

نصل حديثنا هذا بما كنا قد قلناه سابقاً، ونؤكد مرة أخرى أن من الضروري إعادة النظر بالآراء التقليدية حول الاستخبارات. وأنه حان وقت

القيام بذلك. تم قبل الحرب العالمية الثانية، وخلالها أيضاً، السير غالباً على خطين وامتطاء جوادين: فكان هناك من جهة الجاسوسية المألوفة، المعروفة منذ أقدم العصور، التي حاولت التغلغل إلى أسرار العدو بواسطة العملاء والرجال الموثوقين، ومن جهة أخرى وكالة أنباء العدو، التي لها هدف مماثل، لكنها تستخدم وسائل أخرى في الحصول على المعلومات والأخبار. لئن تم جمع معارف إحداهما بواسطة أشخاص أساسا، فإن معارف الأخرى جمعت بطرق مختلفة أو تمت بلورتها عبر عمليات تقصي اتسمت بالمنهجية. وللعلم، فإن الأمر أكثر أهمية في الحالتين كان بلوغ صورة إجمالية عن العدو. هكذا، كان هدف شعبة مكافحة التجسس الأعلى هو الحصول على وثائق من خزائن العدو المصفحة، أو معلومات مباشرة من مراكزه القيادية. بينما استقت وكالة أنباء العدو أخبارها من كافة المصادر التي يمكن الوصول إليها، كي تعرف إجمالي قوة العدو، وتوزع قدراته، وحقيقة نواياه. أما وظيفتها، فكانت إلى جانب تقويم الوضع بصورة دورية، التنبؤ بالعمليات المحتملة التي يمكن أن يقوم العدو بها. غير أن نقطة ثقل جمع المعلومات والأخبار انتقلت خلال الحرب انتقالا متزايدا إلى وكالة أنباء العدو، أي إلى ضباط شعبة الأركان الثالثة وشعب «الجيوش الأجنبية» في القيادة العليا للجيش، حيث برز نجاح شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» المميز في جمع أخبار سرية وتقويمها، بينما كانت شعبة «مكافحة التجسس» في قيادة القوات المسلحة لا تمتلك إطلاقا أي دائرة تقويم.

ظلم تاريخ الحرب والتاريخ المعاصر، وظلمت وسائل الإعلام وكالة أنباء العدو وأسلوبها في تدبير الأخبار. ثمة أسباب صحافية لذلك، فالعمل والبحث والعمل من جديد لا تثير الاهتمام الذي تثيره مغامرات الجواسيس والعملاء. لذا، كان على رؤساء أجهزة الاستخبارات أن يتحدثوا بأنفسهم، في سبيل إحداث تحول هنا ونقل تصور صحيح حول جهاز الاستخبارات

السري بمجمله. منذئذ، صار بالإمكان ـ أخيراً ـ مواجهة العدد الذي لا يحصى من التحقيقات والتلفيقات بسلسلة رصينة من الذكريات، كتلك التي دونها أولريش ليس عن شعبة «الجيوش الأجنبية غرب»، والسير كينيث سترونج عن الحلفاء الغربيين، وألن ويلش دالس عن الولايات المتحدة الأميركية، وجوشيه عن فرنسا، وأخيراً مذكرات جيهلن، التي صدرت سنة 1971 حول جيش الشرق الألماني في الحرب العالمية الثانية، وكذلك تلك التي نشرها رادو.

ثمة بطبيعة الحال نقطة غالباً ما تحفّظ رؤساء الاستخبارات بصددها: تنصب على جمع الأخبار بواسطة الاستطلاع البرقي. صحيح أنهم يذكرونه، ويتحدثون عن أهميته بصورة عامة جدا، لكن المعطيات الدقيقة حول نتائجه تبقى نادرة لديهم. هذا التحفظ، المستمر إلى اليوم، يرجع إلى الرغبة في عدم إيقاظ الكلاب النائمة كما يقال، لدى الجيوش التي شاركت في الحرب العالمية الثانية. من الواضح، أن السرية المطلقة خلال الحرب، بقيت مؤثرة في المجال الألماني خاصة، مثلما تؤكد استطلاعات الرأي المتكررة، بعد أن أمر بند من لائحة وكالة أنباء العدو بما نصه: «عند إبلاغ نتائج الاستطلاع البرقي، يجب أن يبقى مصدرها خفياً على الدوام»[1].

تخبرنا اللائحة ذاتها بأسباب هذا الطلب، حين تصف قيمة الاستطلاع البرقي وتفسره في بند آخر نصه: «الاستطلاع البرقي مصدر أخبار على درجة خاصة من الثراء والقيمة، لا سيما بالنسبة إلى دوائر القيادة العليا، فهو غالباً ما يمكننا من إلقاء نظرة داخلية على تنظيم قوة العدو الإجمالية وتوزيعها، ويسمح بتقدير انعكاسها على نواياه الميدانية. كما يسمح، عند وقوع عمليات حربية سريعة، بمتابعة التبدل في صورة العدو دون تضييع الوقت. أما أخباره

(1) اللائحة معروفة من قبل المؤلف منذ صدورها.

فلها ميزة المباشرة والوضوح، وحتى عندما تفشل في فك رموز الرسائل البرقية المعادية، يستطيع الاستطلاع البرقي، بالمراقبة المتأنية لاتصالات العدو وعمليات سبر لعلاقاته، جلب كشوف حول تنظيمه ومقرات دوائره القيادية. في حين تؤدي المقارنة مع نتائج مصادر الأخبار الأخرى في حالات كهذه إلى معارف إضافية غالباً، علما بأن تغيير مفتاح العدو البرقي يمكن أن يغلق هذا المصدر الإخباري بصورة مؤقتة أو دائمة، وأن العدو سيحاول حجب اتصالاته البرقية بصورة مدبرة، وسيقوم بمناورات تضليلية لخداع استطلاعنا». صدرت لائحة الجيش المسماة وكالة أنباء العدو في الأول من آذار/ مارس سنة 1941. وهي نقطة زمنية لم يتم اختيارها عشوائيا، فقد تأكد أن إنجازات وكالة المراسلات السرية، أي شعبة «المكافحة»، لن تكون كافية في حرب مستقبلية. ومع أنه كان يتم تكديس السلاح بسرية مطلقة منذ خريف سنة 1940 من أجل عملية بربروسا، أي من أجل الحملة العسكرية ضد روسيا، كانت معرفة الجيش الأحمر ضئيلة. وكان لدى الجيوش الألمانية، التي تحشدت شيئاً فشيئاً، معلومات شحيحة حول العدو، الذي عليها منازلته. من المعلوم أنه لم يكن ممكنا ممارسة الجاسوسية في الاتحاد السوفياتي، مثلما كانت تمارس في الغرب على سبيل المثال، وكان من المحال كذلك تغطية هذا البلد العملاق بشبكة من الرجال الموثوقين. بالمقابل، فإن الشيء الوحيد الذي كان معروفا، هو أن الجيش الأحمر يتجدد بسرعة بعد نزيف 1936/ 1937، وأن ستالين والمارشالات السوفيات الموالين له كانوا يفعلون ذلك بنشاط كبير في السنوات الأخيرة، لكنه كانت تنقص تفاصيل عن إعادة التسلح وبرامجه، وحتى الاستطلاع الجوي السري، الذي كان يقوم به سرب العقيد روويل، لم يجلب إلا نتائج مليئة بالثغرات.

هذه الأسباب حتمت التغيرات الجذرية في الاستخبارات الألمانية: مع الحملة ضد روسيا انتقل مركز ثقل العمل الاستخباري أكثر فأكثر من وكالة

المراسلات السرية، التي كان يقودها الأميرال كاناريس،إلى شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» في قيادة الجيش العليا، أي إلى استخبارات بالجيش، التي ستحمل من الآن فصاعداً العبء الرئيس في جمع الأخبار، وخاصة في تقويمها. وسيكون عليها تقديم معلومات وأخبار وتقارير دورية إلى قيادة الجيش. طبيعي أن شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» عملت بالتعاون مع شعبة «المكافحة»، لكسب مساعدتها لدى إلقاء نظره داخل عمق مناطق روسيا الخلفية، ومراكزها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية، بما أن الاستطلاع الجوي والأرضي لم يكونا كافيين حتى ذلك الوقت، في حين أخفق الاستطلاع البرقي واللاسلكي، لأن دائرتي الاستطلاع هاتين كانتا تستخدمان أعقد طرق الترميز، أو أنهما كانتا لا تبرقان إطلاقاً.

بنظرة إجمالية، كان لاستخبارات الجيش تاريخ مزدوج. فهي لم تتغير فقط تبعاً لوضع الحرب ولساحتها، بل ستستخدم على الجبهة الشرقية، وفي الغرب عامي 1944 / 1945 وسائل أخرى، ستجعل عملية الحصول على الأخبار خالية من العيوب. لقد عرفت الاستخبارات كيف تؤقلم نفسها مع مهمتها، لذلك كانت منذ سنة 1941 نسيج وحدها، بينما توارت «المكافحة» في الظل، وتزايدت إنجازات وكالة أنباء العدو مع تنامي الخبرة الحربية. وبالمناسبة، يجب أن نؤكد، من أجل الحقيقة التاريخية على الحقيقة الآتية: لئن وجدت في محيط القيادة العليا للقوات المسلحة مواقع رخوة، تسربت منها أسرار الدولة والأسرار العسكرية، فقد وجدت في مراكز موسكو أيضاً مواقع مماثلة لها، لأسباب أملاها، بدوره، النفور من النظام الشمولي المسيطر. ثمة إشارات إلى ذلك يمكن العثور عليها، بين أشياء أخرى، في مذكرات فون جيهلن[1]. بيد هذا الضرب من الخيانة الوطنية لم يكن حاسما

(1) المرجع ذاته، ص 72.

بالنسبة للحرب، سواء في ألمانيا أم في روسيا. لم يتم كسب الحرب العالمية الثانية بواسطة الجاسوسية، الناشطة في سويسرا أو موسكو. هذا ما أكدته مذكرات ألكساندر رادو، مدير مركز التجسس السوفياتي في جنيف بين عامي 1939 و 1943.

من الضروري القول هنا: إن بعض الأشياء كانت سيئة في مقرات الفوهرر الرئيسة في برلين، وفي «ملجأ الذئب» في بروسيا الشرقية وفي بيرشتيسغادن، حيث كان يمكن إدارة الحرب بطريقة أفضل، وربما تحاشي نهايتها الكارثية، لو ان القائد الأعلى أصغى إلى معلومات ومعارف وكالة أنباء العدو، واستخلص النتائج اللازمة منها. أؤكد على هذه النقطة، لأن الوحدات وقادتها عرفوا كيف يفيدون من معارف الوكالة، التي لم تقومها القيادة الأعلى وتضع في ضوئها استراتيجية سياسية وعسكرية عقلانية، بل رفضتها بفظاظة، كما نعلم. لو أخذت نتائج الوكالة بالاعتبار، وتوفرت قيادة عقلانية للقوات المسلحة الألمانية، لأمكن إنهاء الحرب في روسيا بتوازن مصالح روسية ألمانية، شريطة تحرر الألمان والروس من دكتاتوريهما. لقد فر ملايين الروس من ستالين سنة 1941/ 1942، وفشلت محاولة قتل هتلر سنة 1944.

تحولت الشعبة الثانية عشرة في أركان الجيش العامة إلى مركز لوكالة أنباء العدو خلال حملة روسيا. وقد شهدت هذا التحول بعد أن تولاها العقيد في الأركان راينهارد جيهلن، مساعد العماد هالدر، يوم 1/ 4/ 1942[36]. لقد عرف رئيس الأركان تمام المعرفة الشخص الذي اختاره لذلك، فقد كان العقيد والعماد يرتبطان بتوافق آخر غير الاتفاق العسكري الصرف. نمت مهام شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» السياسية نموا متعاظما منذ بداية حملة روسيا، ثم غدت مركز طموحات أرادت إنهاء حرب الشرق

سياسيا، إن أمكن. ومع أنه كان على هذه الطموحات أن تتخفى، فإنها وجدت تفهما بل ودعما لدى بعض المارشالات وكذلك لدى شعبة التنظيم في الجيش، وخاصة لدى عقيد الاستخبارات شتيف والرائد شتاوفنبرج. وهنا كمنت بواعث العمل الذي قام به الأخير في العشرين من تموز سنة 1944[37].

عدا ذلك، لا بد من التأكيد بصورة خاصة على ما يقوله جيهلن حول عمل شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»[1]: «لم يكن سحرا محاطا بالأسرار ما أنجزه العاملون معي». إن الاجتهاد، والإتقان، والمعرفة المتخصصة، والسرعة أهلتنا للوصول إلى مقولات صحيحة حول أوضاع العدو ونواياه. هذه النتائج لم تتفق غالباً مع التفكير الرغبي لهتلر، الذي قرأت في حضرته أربعة تقارير فقط، لأن قراءة التقارير كانت مهمة رئيس أركان الجيش، العماد هالدر، ثم تسايتسلرس وأخيراً جودريان... أستطيع أن أؤكد فقط بأي قدر من الحدة دأب رؤسائي على العراك مع هذا الرجل، ليحولوا دون استخلاصاته التي كان خطأها واضحا... وكان وضع العدو النقطة الأكثر أهمية في هذه التجاذبات. أما المعارف التي تم اكتسابها في إطارها، فقد اعتبرت، بحدتها التي تفاقمت أكثر فاكثر في مجرى السنين، انهزامية، وتخريبا لما ينوي فعله.

تطور الاستخبارات بين 1938 و1945

لم أصف إلى الآن الترابط الذي وسم تطور أجهزة مخابرات أوروبا في الفترة بين 1938 و1945. يرتبط هذا بأحداث الحرب وبالمادة المتوفرة، المليئة بالثغرات. مع ذلك، بوسعنا تكوين نظرة إجمالية غنية حول هذا التطور، بمراحله الخمس الكبرى، التي يمكن التمييز بينها، انطلاقا من وجهة النظر

(1) المرجع ذاته، ص61.

الألمانية، وعرضها بالطريقة على النحو الآتي تقريباً:

1 ـ فترة التوتر على عتبة الحرب العالمية الثانية. وقد صحبها نشاط مكثف للاستخبارات الأوروبية، التي أخذت تستعد لصراعات حربية محتملة. وقد تم في ألمانيا تكثيف الاستطلاع الجوي واللاسلكي بصورة خاصة، وبذلت جهود في برلين للتأثير على الملحقين العسكريين الغربيين عبر برامج التسلح الألمانية، التي قدمت بصورة مبالغ فيها.

2 ـ فترة الحملة الصاعقة بين 1939 و1941، التي كان الجانب الألماني قد استعد لها جيدا من الناحية الاستخبارية. أما نتيجتها فهي معروفة: خروج الدول الكبرى والأصغر من الحرب: بولونيا، هولندا، بلجيكا، النرويج، فرنسا، البلقان واليونان، لذلك لم يبق على شعبة «الجيوش الأجنبية غرب» من تراقبه غير إنجلترا[38]، وكذلك الحال بالنسبة إلى «المكافحة»، التي لم يحالفها التوفيق مع عملائها هناك. من المعلوم أن فيدكون كيسلنج، وزير الحرب النرويجي السابق، قدم أهم المستندات الاستخبارية، التي أفادت حملة ألمانيا ضد النرويج. بينما لم يوجد شبيه له لدى الحلفاء.

3 ـ فترة الانتصارات الألمانية في الشرق (وفي شمال أفريقيا)، التي جلبت ملايين الأسرى والفارين إلى الألمان، والمتعاونين الذين قدموا طواعية معلومات غزيرة ومن الدرجة الأولى. وقد شكلت معركة ستالينغراد سنة 1943 نقطة انعطاف في هذه الفترة.

4 ـ فترة الدفاع بدءا من 1943، وقد جفت خلالها ينابيع معلومات كثيرة، بينما كسب أعداء هتلر مصادر أخبار جديدة. وتعتبر سنة 1943 سنة نجاحات المقر السوفياتي في سويسرا، الذي أقامه ألكساندر رادو الملقب دورا[39].

5 ـ القتال الألماني النهائي عامي 1944 و1945، وكادت وكالة

11. الجنرال ليوتنانت برنارد ل. مونتغومري في شمال أفريقيا سنة 1942.

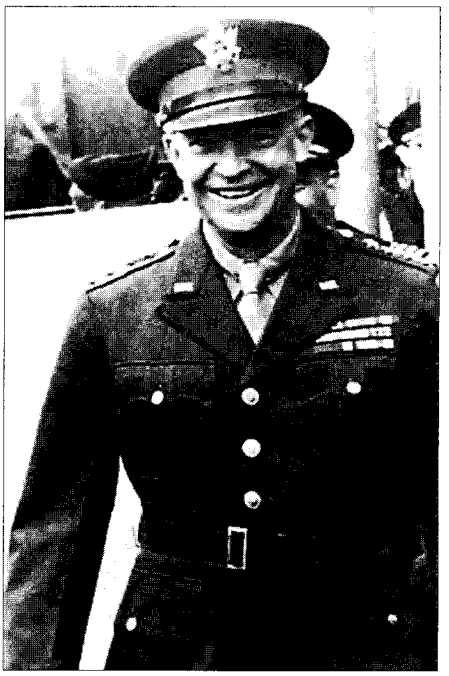

12. الجنرال دوايت أيزنهاور قائد قوات الحلفاء في أوروبا.

13. الجنرال دوايت أيزنهاور والجنرال جورج سميث سنة 1944.

15. المارشال السوفيتي ج. ك. شوكوف في بوستدام سنة 1945.

14. الجنرال موريس غوستاف غاملين في فرنسا شباط/فبراير 1940.

16. فيلد مارشال مونتغومري والمارشال شوكوف والجنرال أيزنهاور والجنرال كونغ في برلين سنة 1945.

17. ميجور جنرال راينهارد غيهلن سنة 1944.

18. قائد جهاز إس. إس. الخارجي فالتر شللنبرغ 1940 (أسفل).

19. الأدميرال فلهلم كناريس مع قائد جهاز إس. إس. راينهارد هايدريش في برلين سنة 1936.

20. ج. أولريش ليس.

21. ج. غيرهارد فيسيل.

22. الجنرال إريك فيلغيبل 1944.

المراسلات السرية أن تصاب خلاله بالموت، بينما قامت استخبارات الحلفاء بأنجح مناورة تضليلية عرفها تاريخ الحرب الأحدث. بالمقابل، دان هجوم الأردين، الذي شنه هتلر في كانون الأول/ديسمبر من سنة 1944، بنجاحه التكتيكي المفاجئ إلى السرية التامة على الجانب الألماني. ازداد في هذه الفترة اعتماد القيادة الالمانية على الاستطلاع الجوي، الذي عمل بصورة ممتازة حتى نهاية الحرب. أما في الشرق، فقد تلاعب عملاء اللاسلكي السوفيات، العاملين وراء خطوط القوات المسلحة الألمانية، بالتنصت اللاسلكي الألماني.

تصف هذه المراحل تبدل الوضع بين عامي 1938 و1945، وتعد رائزاً لإنجازات شعبة «المكافحة»، التي قامت بعمل جيد وحصلت على معلومات مهمة كثيرة قبل الحرب، قومتها غالباً شعبة «الجيوش الأجنبية»، لكن نجاحها اقتصر فيما بعد على مهام المكافحة في المناطق المحتلة المتزايدة الاتساع، عبر مكافحة الجواسيس والعملاء ومجموعات المقاومة المعادية. لكن العمل ما لبث أن تجاوز بمرور الوقت قدرتها، خاصة وأن «قيادتها الداخلية» فشلت، مما وفر سببا موضوعيا لاستبدال كاناريس، وكان بداية نهاية استقلاليتها.

معلومات سرية لا فائدة منها

التلصص، الإصغاء، الحياة المكلفة، المغامرة وقصص النساء: هذا هو التصور السائد حول الاستخبارات (العمل السري). لكن الحقيقة اختلفت عن ذلك في الحرب العالمية الثانية، حيث لم يعد يكفي، على سبيل المثال، أن يصور «شيشرون» أثناء الليل وثائق سرية مهمة، بل كان يجب أن تصل الصور إلى الجهة الصحيحة وأن تؤدي إلى قرارات. إن التاريخ، الذي ندونه هنا، سيثبت أن هذا لم يحدث دوماً في الواقع، وأنه لا ينطبق منذ سنة 1942 في ألمانيا إلا على دوائر القرار العليا، لأن هتلر كان يرفض معرفة الحقيقة

عن العدو، وقام بطرد جيهلن في نيسان/أبريل من سنة 1945 بتهمة الانهزامية، حين أخبره بوضع العدو الفعلي على الجبهة الشرقية دون تجميل (أو تزوير). غير أنه كانت هناك «أعطال» على الجانب الآخر أيضاً، وإلا لماذا رفض ستالين تصديق الأخبار حول انقضاض هتلر الوشيك على روسيا السوفياتية؟. ولماذا استخلصت استنتاجات خاطئة من بقايا أوراق ضابط المراسلات الألماني، الذي اضطر للقيام بهبوط اضطراري في بلجيكا يوم العاشر من كانون الثاني/يناير سنة 1940، واعتبرت القضية مناورة تضليلية ألمانية؟. كيف أمكن أن يصيب الألمان الإنجليز والإنجليز الألمان بالجنون، بـ«ألاعيبهما اللاسلكية»؟. ولماذا بقي الكثير بلا تفسير، مثل «خط الفايكنج»، الذي امتد من قيادة القوات المسلحة الألمانية إلى سويسرا؟. وما حكاية مارتن بورمان، وفالتر شيللنبرج؟. ويد من كانت في اللعبة، حين اختفت سنة 1944/ 1945 في دوائر الخدمة ببرلين أهم الرسائل اللاسلكية التي تبادلها «دورا» «والمدير»، والتي تم فك مفتاحها؟. من هو المخبر في وزارة الخارجية ببرلين الذي تعامل مع دالس، مفوض روزفلت الخاص آنذاك في سويسرا، وتمكن من تبادل البطاقات البريدية معه بين 1942-1945؟[40]. من استطاع هذا أن يشتري في المكتب الرئيس لأمن الرايش؟. ربما كانت الأجوبة عن هذه التساؤلات لن ترى النور أبدا، ذلك أنه يوجد في مكتب الأخبار السري عدد قليل وحسب من الوثائق، يشي بمكنوناته، بينما يلتزم حملة الأسرار بالصمت إلى نهاية حياتهم، ولا يتم إعفاؤهم من هذا الالتزام إلا في حالات استثنائية. ثمة هنا حد طبيعي للبحث، الذي يمكن مع ذلك أن يبلغ شيئاً واحدا، هو اقتناع الرأي العام بحقيقة أن الاستخبارات السرية تستطيع التأثير في سير الأحداث الحربية، والإسهام في النصر أو الهزيمة، لكنه لا توجد بعد حرب حسمتها الاستخبارات، ناهيك عن الجاسوسية: حاملتها الثانوية جداً بعد سنة 1941.

ستدور الفصول التالية، وخاصة منها الفصول التي كتبت عن الاستطلاع اللاسلكي، حول هذا الموضوع.

بيد أنه لا بد، بادئ ذي بدء، توضيح مشكلة أخرى كبيرة تنضوي في الإطار الأوروبي، هي مسألة الاستخبارات السرية السوفياتية، التي لاحقت أهداف الاستخبارات الأخرى ذاتها أو أهدافا مشابهة لها، في ميدان القتال الأوروبي، لكنها بقيت حالة خاصة بكل معنى الكلمة، في كل ما يتعلق بتاريخها وتطور طرائقها ومصير العاملين فيها، ويبقى من الضروري والمفيد، على كل حال، التعرف إليها عن كثب.

obeikandl.com